مراودة

مراودة

د. ياسر ثابت

تصميم الغلاف : محمد عيد

رقم الإيداع : 2014/9230

I.S.B.N: 978-977-488-296-8

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : 01144552557 - 01147633268

E – mail :daroktob1@yahoo.com

دار اكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الأولى ، 2014م

مراودة

د. ياسر ثابت



دار اكتب للنشر والتوزيع



إلى التي يمكنُ أن أكتبَ حروفَ اسمها،
وأتوقف مبهورًا بهذا الكتاب الجامع

لدغة حُبّ

21

نزل الرقم عليه كالصاعقة.

لعله كان يدري أو يحزرُ الأمر، وإلا لما كان قد أجلّ طرح السؤال الذي تلقى عليه تلك الإجابة.

يا إلهي، هل الفتاة التي في سريره الآن، مراهقة تمرُّ على العروق فتوقظها؟!

الآن يكتشف أن في فِراشه فراشة في نصف عمره.

هذه اللحظات الكاشفة تأسرنا إلى الأبد.

التقاها في القاعة الكبيرة وقت الاستراحة. وقف بكامل أناقته يحادثُ أخرى بهدوء غير متكلف، حين وجدها واقفة أمامه بابتسامة واسعة وعينين تُلقيان ما هو أكثر من التحية.

نظر لها في البداية بوجهٍ محايد كقِط، قبل أن تُذيبَ بابتسامةٍ ساطعة كل الشمع حول جسده.

يا لسهولة الترق!

ثغرها علبة موسيقى، تصدح بمعزوفةٍ تجيد سلب العقول. قوامُها يشبه ساعة الرمل؛ إذ ينسكبُ صدرها بتماسكٍ فوق

خصر دقيق، سرعان ما يتفرع عنه ردفان دائريان. ساقاها السخيتان، متاهة من التفاصيل العصيّة على السرد.

تشبه فيرونيكا جينزَها الضيق: ملامح دافئة تترك الرجال على حافة خيط دخان، وجمالٌ يهب كلّ قطعة من الجسد نشيدها. والجينز حالةٌ غير موضوعية، وخصمٌ غير هيّاب، لا تأخذه رأفة ولا شفقة بالتماع نظرات الرجال وأفكارهم السرية.

نصبَ فمُها الذي يضحك للندى وجسدُها الفائر حوله شباكـــاً بدائية بخيوط من عذوبة.

وكأي راغبٍ إذا عَرَضت طريدة، فكر في أن ملامستها تُنسي الهرم، وأن عليه أن يقاوم برد برلين بالمزيد من الشقراوات.

صار مثل العصا التي تقول: منذ زمنٍ لم ألمس الأرض!

أو ليس الغرامُ محاولة لاستكشاف الحياة؟!

تستفسر منه عن تفاصيل وردتْ في كلمته، وكان كل شيء فيها يعربد عشقـــاً أمام افتراعات عينيه، فيما أذناه تكادان تلتقطان صوتَ عراكِ حطبها ونارها.

تدفعُ الابتسامةَ ببطءٍ إلى حافةِ شفتيه.

كان جسدها يقف أمامه على هيئة نعم، وعقله يراوده قائلاً: لِمَ لا؟

على مائدة العشاء في المطعم اليوناني، تأسره موسيقى ميكيس ثيودوراكيس، ويضجره لغطُ الرفاق حول مسابقة الأغنية الأوروبية "يوروفيجن"، والسكارى الذين عجزوا عن الفصل بين الضحك والدموع فمارسوا دبلوماسية الأنين، والنادل المتزلف الذي يغمز له بطرف عينه حين يراها تقرب وجهها من وجهه تحت ضوء الشموع.

فراشة تقترب من ضياء رجل رماديّ الطلعة، وكأس نبيذ تراوغُ شفتين عاريتين إلا من الحُبِّ.

يثرثران، وبينهما كأس نصفها فارغٌ، ونصفها الآخر يشع في الدماغ.

جمل وعبارات لا تبدأ بفاصلة ولا تنتهي بنقطة.

قالتْ له وهي تتأمله: "عيناك الساحليتان، هما كل وجهك"، وأردفتْ بعبثٍ مُستحب: "خفتُ ألا تنتبه لي وسط زحام المعجباتِ الذي قد يوفر لك الخبز اليومي من الثناء المحبب للذات".

تجاهل خبث جُملتها الأخيرة بعد أن احتكّتْ به في دلال مُخلّفَة عبيرها. لوهلةٍ، حَسبَ أن نهديها جاسوسان يحاولان ثقب قميصها؛ للتنصت على الحوار الدائر بينهما.

وفي الأحاديث، تقود الشاعرية إلى الشعر: من إنسانية سعدي الشيرازي إلى جرأة آن سكستون التي كان فمها يزهرُ كجُرح.

ينتبه إلى أن الوزير التركي اعتذر بلباقة عن عدم تلبية دعوة العشاء في المطعم اليوناني. ارتباطات أخرى، أم أنها السياسة تفرض حساباتها حتى في المطاعم!

يسكن الجميع في المطعم، حتى الشقراوات ذوات الرموش المستعارة وأحذية جلود الأفاعي، ويصمت الذين يبيعون الوقت بالضحك حين تصدح لينا ماير لاندرت، المغنية الألمانية ذات التسعة عشر ربيعـاً في مسابقة "يوروفيجن". غناؤها الصافي مثل قدر محتوم في جغرافيا الأوتار.

تغمر المكان "حُمّى لينا"، التي تجتاح ألمانيا بحثـاً عن لقب ضائع منذ 28 عامـاً.

يسيران في الشوارع الطويلة المتكبرة، حيث الأحجارُ المتراصفة المطلية بسوادٍ وبياض يكسوها لونٌ مبهم في قلب الليل.

بدت مثل خيال الحياة، لا الحياة متخيّلة. ابنة للقرنفل واللبلاب، ورائحة كأنها نداء. تود لو تتغلغل في دفئها حد الاحتماء. ملفوفة في معطفها وقفازها وطاقية رأسها، لكن نسمة هواء تراوغ لتلهو بشعرها الناعم، وترِّفُ تحت قميصها، في عبثٍ يقيم الليل ويقعده.

مشيُها طيرانٌ على اتصال طفيفٍ بالأرض، وهي تخطر في خيلاء مُهْرَة عربية. كان صندلها الوردي يجعل ساقيها تبدوان أجمل وأشهى.

يسيران في شوارع بلا نهايات، وسط أشجار عارية إلا من الشبق، يرصدان نجمة هربت من أقاصي الليل، ويطالعان الألعاب النارية التي تضيء سماء برلين احتفالاً بفوز لينا باللقب الغنائي الأوروبي.

هذا يوم المراهقات بامتياز!

ابتسمتْ فيرونيكا قائلة: "أنغيلا ميركل وجه ألمانيا؟ هراء.. لينا هي وجه ألمانيا". وأضافت: "لقد فزنا في أوسلو.. الآن كل شيء ممكن على جبهة كرة القدم في جوهانسبرغ".

بدا رذاذ المطر، شقيق الأنهار، خفيفـــاً كقبلة عابرة؛ لم ينتبها إليه إلا حين انفصلتْ عنه هالتُه وسقطتْ على رصيفٍ كان باردًا بما يكفي لكي يصغي إلى النشيج الداخلي الرقيق في أعماقه.

يتوقف المطر فجأة مثل دموع طفلة قدم لها الوقتُ قطعة حلوى.

يراقبان البيوت والنوافذ والأزهار والنافورة المضيئة التي تطاولُ سماء تكاد تفلتُ منها.

عند المنعطف الذي يؤدي إلى الفندق الذي ينزل فيه، تندلع الحقيقة. كان يبتسم لها وهو يحادث نفسه قائلاً: "شيء مزعج، أن تواصل ترتيب أوراق روحك بعد أن اشتعل الرأس شيبـــاً".

في الغرفة التي تقع في الطابق التاسع عشر، يغبط الباب نفسه عندما يُغلق على عاشقين.

يراقبان من شرفة تغطي أساها بالحصى، وقع الاحتفال بالنصر الموسيقي. تقول له إن "الموسيقى ذات جوهر أسمى من الحياة الغامضة، وربما أسمى من الموت المجنح". تشير بإصبعها إلى السماء، وتكاد تُقسم أن القمر النحاسي الضخم يبدو على هيئة وجه مبتسم، فيوافقها الرأي؛ إذ يبدو ضوء القمر غجرياً ومُغوياً كأنه سوناتة مفقودة لبيتهوفن، وكانت عيناها تعيدان كل الحكايات إلى فتنة الألق.

تُحدثه عن الأدوار السينمائية الصغيرة التي أُسندتْ إليها، وتقول له: "لن أدخل مطلقاً في حياتي في أي علاقة مع ممثل، فالممثلون الرجال مقززون ومتكبرون". تضيف ساخرة: "من تلك التي تريد صديقاً بحقيبة يد مملوءة بالكريمات وزيوت الاستحمام؟".

في لجم الليل الغائر، كان ضوءُ القمر يُمسكُ لهما بابَ الرغبة فلا ينغلق؛ وهي تقف أمامه، رائحتها مثل اليوسفي، ناضجة وجاهزة للتقشير.

تقول: "أحِبُّ الرجال الذين يتسمون بالهدوء مع لمسة من عبقرية الجنون. شون بن، وغاري أولدمان، وتوم ويتس، من

الرجال الذين كان من الممكن أن يعملوا في تقليب البرغر في مطاعم الوجبات السريعة، لولا أن التمثيل منحهم متنفساً للتعبير عن جنونهم بشكل مبدع. أنا أيضاً أحِبُّ أولئك الذين يملكون عروقاً نافرة في أذرع تضج بالذكورة".

من طبائع العشاق: اليد تمتد، والفم يحلم دوماً بالوليمة.

يُقبلها، فيتسربُ ريقُها إلى دمه، ويتبعثر شعرُها على أشجار روحهِ مثلَ أيام هادرة.

يلتقط عذوبة الرّيق.

يا لدهاء العاشق المحتال، الذي يخلط كثيرها بقليله، كما يخلط امرؤ العسل بالسمن، ليصنع منهما فطيرة الشهد وترياق الوجد وإكسير الحياة!

ربما تضج الثمرة بمذاقها الشهي، لكنها تبقى صغيرة بالنسبة إلى فمٍ ظمآن إلى مائها المُسكر.

الشفاه التي تنضغطُ ثم تنزلقُ في غياهب التمني، لا تطيقُ لحظة فراق.

تسائله وهي دائخة: "تلك قبلةٌ أم قنبلة؟!".

يصمتُ.. ويداه تتكلمان؛ اليد أخبثُ عابثٍ بمقدراتِ الليالي الساكنة.

يحاول سحب أزرار قميصها من دوائره الضيقة، فتمازحه قائلة: أصابعك، لصّ ملثمّ بالشقاوة.

يحتضنها قبل أن تتوه منه اللحظة الغامرة.

همس في أذنه قائلة: بعثرني، لا أحِبُّ أن أخرج من عندك بكامل هندامي.

عندما تأخذ امرأة، خذها.. ولا تلمسها كظل.

وفي المشاعر المتدفقة كنهر، فإن خيرَ العشق عاجله.

تتوحشُ بلطفٍ وهي تَتَبَّعُ قِنديلَه في باطن كَفِّها، فيما تمتلىء عيناها بالروعة.

يلمسُ نهديها الشقيين إذ يتحرران من صرامة المشد، مثل شهودٍ أخذوا القضاة رهائن.

حين يلثمها تفوحُ منها رائحة النبيذ الأحمر، فيذوبُ مثل قرصٍ فوَّار.

قطرة ضوء انزلقتْ في فراغ الأسرار بين الثديين، فيما طارتْ فراشاتُ ثوبها لتحط في غابة شعر صدره.

ينشغلُ بصدرها العاجي العامر بحلمتيه الوقحتين، وبشرتِها الناعمة كالأطفال، وهي تشده إلى هاويةِ لذتها السحيقة.

يعضُ برفق تلك الدائرة القانية التي تخفيها عن أعين الفضوليين، فتبدو سعيدة وعنيدة كجواد جامح يجري وسط لظى جسد يبوح بما لا يُباح.

جسدُها جمرة لم تعد تُميّز بين وقع قلبه ووقع رائحتها.

يلثم حبّة الخال القابعة بالجزء الخلفي من الساق، فتناديه في غيرةٍ حبّة الخال النائمة على ركنٍ من عنقها.

تعتليه بغنج لتُسكنه جنانها وجنونها. تهتز بإيقاع منتظم، وهو يحملق في السقف، قبل أن ينظر في اتجاه النافذة استجداء لبعض الهواء.

أيُّ ريشٍ يَرتَعِشُ الآن في الوسادة؟

الهواء له رائحة مسك الليل، وهو يصطاد الخفة الهاربة.

نهدُها الأيسر يباغته فينطلقُ كأرنب البراري، فيما بطنُها الضامر يهربُ من كتب البلاغة وحدهما عيناه كانتا تتشربان المشهد.. ويداه تتكلمان.

تنصهر معادنه أكثر، كلما فقدتْ التحكم في شفتيها.

يتهدَّج صوتها وهي تقول: أيها العابرُ المقيم، أعطني نهدين بلمستك، امنحني شفتين بقبلتك.. شُعاعُك القائمُ فيَّ، يأخذني ليقين.

يقول لها جسده: هذا التأني يُنضج حباتِ الفاكهة في حقولك.. دعي اللمسات تفتح الْأَبْوَابَ الْمُوصَدَة، وتنساب رويدًا رويدًا لتروي هذه الأرض. دُلّيني إلى طريق الحرير في جسدكِ؛ إلى جملكِ الباهرة التي أود أن أمهرها عمدًا بتوقيعي.

خائنة الأعين تكشف خبايانا؛ الرغبة المتقدة، الهوى الهش، الحُبّ القصي، والجسد الذي تخلى طوعـًا عن لعبة التمنع.

حُرّة دون انفصام، إلا حين تحتضنه فتشهق به، منه، إليه.

يراقبُ كلّ لحظةٍ تغيُّرها في عوالمِ ضوئِه، كأن قيامتَها قد حانت.

يحصي بتمهل شديد كل الشامات في جسمها.

واحدة نافرة أعلى العنق..

وواحدة قبل النهد الأيمن بقليل..

وواحدة في بطن الساق..

وأخرى تنام في مكان ما بين الحدائق والحرائق.

يمتص رحيق المياسم، يعاقر الكرز والعسل، خفيفـًا كرغوة، يغزِلُ بأصابعه أجنحة من الماء.

يخرُجُ من قُبّة الذُهولِ، ويلمس الوردة التي اختبأتْ في أوراقها؛ كي يُلهب ظهر المساء.

ناره تحرق هذا البدن العبقري الرائع، والرائحة الغامضة تتسلل إلى أنفه.

يدرك ببراعة ما تبوح به كل استجابةٍ وامضة، وهو ينقش اسمه فوق سديم سُرِّها.

يبذر حنطة العشاق في حقول الشقرة، يهصرها في جنون الشبق، فتتمدد على مساحات اللمس، مغمضة عينيها لتتذوق الواقع.

جسدها الأبيض اللدن به شوقٌ للخدوش، وفواكه الجسد كلها لذيذة.

امرأة تشبه كعك البراوني الساخن الذي تسيل من قمته طبقة آيس كريم.

تخبئ في كل زاوية كنزًا، وتحت كل زهرة رحيقـــًا.

كان يفترسها بشراهةٍ لا تشي بشبع أو ارتواء قريب، وهي تنجلي وتتجلى، وتطلق تأوهاتها صريحة كي يضعها في مدارٍ ما؛ ليكتشفه عالم فلك ذات يوم.

جسده ناي يحلمُ بالمرج؛ إذ ينشد مع امرئ القيس:

"مكرّ

مفرّ

مقبل

مدبر

معـــــًا".

وهو لا يفر مما يكر، ولا يكر على ما يفر.

ترتخي وتتردد أنّاتُها داخله كالصدى، فيما لهاثُها الوحشي يتصاعدُ من عمق بعيد.

ترهقه هجمة العُري الوفير، فيتسلل إلى رحمها الدافئ الذي يروي سيرة الحرائِق الْأَبَدِية.

ساخ اللحم في اللحم، واستغرقت الرغبة في الرغبة.

تخلّلها المِرْجَلُ الُمقَدَّس مثل تروس آلة الزمن، داخلاً في فراغاتها، حتى امتلأتْ به.

عناقٌ يُذيب الأغطية.

من يردّ عنها مفاتن هذا الحريق؟

يشق قناة من نورٍ عذب، على هديه يبحر القراصنة.

تستعجلُ غيبوبة اللذة ثم تنعم باستبطائها، إلى أن تهتزَ حد الرعشة وتعصف كبركان فائر.

حين تكونُ داخِل امرأة، تعرف سر الحياة.. وحين تتساقطُ دموع العنب، تتذوق طعم اللذة.

الماء لا يتحدى الجاذبية، أما الجاذبية فهي تتحدى كل سوائل الدنيا.

كلّما انثنى على ظلّها ظلُّه، تُمطر بسخاء عاشقة.

يقفزان من لذة إلى أخرى، من ذروة إلى أخرى، في مزيج باهر حلاوته مُسْكرة؛ وهو يستمتعُ في كل مرة برؤية تقلّصات وجهها الناعم في لحظات ما قبل الذهاب.

على الحائط لوحة لمنظر طبيعي، كانت ترقب في دهشةٍ التفافَ الأفخاذ كأغصان الشجر.

ليلة واحدة، تمر ببطء اختاراه، لكنها تسبح بثقة إلى القلب.

روحان في ليل كثيف، ورغبات تركل النعاس بعيدًا، حتى ينطفئ الكون.

والليل نهار مُتعَب، يعلمنا لعنة التوهج ونعمة الانطفاء.

قالت له تلك التي ينزُ منها عرق فوسفوري لامع: أنتَ أولُ رجلٍ لي من خارج عالمي.

وكان عالمُها هو بلدُها النائم على أنهار تفوح منها رائحة المجون.

تسأله: من أنت؟

يجيبها متفاديـــًا النظرة المباشرة إلى وجهها: لستُ سوى طائر نبتت له في المنفى أجنحة؛ خانته البلاد التي أحبَّ بكلّ الجنون، فاستعار منطق سيزيف، ليواصلَ التفوق في امتحانات اليأس.

تنقلبُ نصفَ دورة في السرير، بأرضها المحروثة للتوِّ، ثم تُعيد الكَرَّة: هل لك حبيبة؟

يردُ بصوت خفيض كأنه سفينة تمشي بأطراف أصابعها على الماء: ألف عاشقةٍ تغذّتْ من دمي، وحين لا أجدهن أحرثُ بياض الورق. لا تُوحِشُ الوحدةُ أصحابَها.

جف ريقُ الأسئلة.

قبل أن يحتلها النوم ببطء، يهز بيده خلية النحل الرطبة كي يتذوق لمرةٍ أخرى قرص العسل.

هذه الليلة لن تمضي أبدًا!

تُقبله بنهم، وتضع خاتم الليل في إصبعها، قبل أن تنزلق بين الأغطية، عارية مُترعة بالشبع.

تضبط ساعة هاتفها الجوال، ثم تذوب في غابات أحلامها المتوهجة.

أما هو فجمع جسده إليه وطوى الرغبة التي فردتْ أذرعها أمام تجاعيد أحلامه.

كانت كل الأشياء مرمية على الأرض، وعلى السرير جسدان عاريان، وغارقان في رَغاوى العبَث.

عندما أطل قرصان النهار، وجدها تتنقلُ حافية مثل حُبٍّ استيقظ للتو.

يتأملها بافتتان حواسه الخمس، فتفاجئه بالقول: لكم هو جميلٌ وشاعريّ سريرك!

كانت الملاءة البيضاء لا تزال تحمل حرارة جسديهما، لكنه ليس سوى سرير في غرفة فندق سيغادره هذا المساء. بعد قليل سيأتي الخدم ليبدّلوا الملاءات، والحكايات.

وبرقة عاشقين حفظ كلاهما جسد الآخر، يشدها إلى جواره ببراثن من حرير، ليراجعا مع شغف الصباح دروس الأمس.

لا يجد إثمـــًا في أن يرتوي من هذا النبع المُشتهَى، فالمرأة الجميلة مثل العبارة الرائعة، لا تحتمل قراءة واحدة.

يرقب حبات العرق، وترقب نوبات الغرق.

يسبح عبر فوضاها حتى يصل إلى غُرفة التحكم، حيث دوامة الألوان الحارة، ليلمح على وجهها ابتسامة هيروغليفيّة لا تُمحى.

ما بين رعشتها وذروته يقطفان نصاب الفرح.

يختلسُ نظرة خاطفة إلى المرآة وهو يغتسل، فلا يرى سوى وجهٍ يكبر في السر. ليس هناك شيء خلف هذا الوجه سوى العدم.

بعد الحمام السريع الدافئ، يجد مفارش السرير البيضاء وقد عادت مُرتبة:

– "سوَّيته؛ لأزيل آثار المعركة".

– "كانت معركة جميلة، استغاث فيها الجلد بالجلد، لكنها بدون جيوش".

يلمحُها ملتحفة بمنشفة كبيرة بيضاء وهي تمشطُ شعرها المبتل، فيرتبكُ المشط.

يتبادلان أحاديث ضاحكة وابتسامات يانعة تتخللها قبلاتٌ قصيرة متقطعة؛ إذ يكتشفان أنه ترك "لدغة حُبّ" أعلى العنق.

فضيحة موشومة بأزرق عابر للجنون، خبّأتها بخصلات شعرها السائب.

تخبره بأن عليها العودة إلى منزلها قبل الظهور مجددًا في اليوم الأخير من المؤتمر.

يسألها في دهشة عن السبب، فتجيبه بمكر شهواني قائلة: "سيعرفون.. رفيقاتي بالذات سينتبهن إلى أنني لم أغيّر ثيابي، ولن تفوتهن تلك الملاحظة".

شعر بالأسف والأسى، وتَشَاغَلَ بترتيب ثيابه في جوف حقيبة سفر تنامُ في محارة العزلة، حتى أنها نسيتْ كيف يبدو العالم في الخارج.

يتناوبان على مرآة المدخل التي تجمعهما كجسدٍ واحد وهي تغرق في حضنه.

في مطعم الفندق؛ اختار العسل والكرواسان وعصير البرتقال، وفضلّت هي التوست وشرائح الجبنة مع فنجان القهوة المقدس.

تتهادى في المطعم مثل سنبلةٍ ناعمة، يُداخلها زهو امرأة مُشبعة بالامتنان، بعد أن مارستْ الحُبَّ حتى الصباح.

أقنعة الصباح تختلف أحيانـــًا عن أردية الليل؛ وفي مكان خفيّ تنام الحياة.

يحينُ الوداع.

عمرُه كله نضجَ على نار تلك اللحظة.

هو فاشل في وأد اللحظات الأخيرة. كل ما يعرفه عن الوداع هو الاختفاء والاختباء، ومشاهدة من يحِبّهم يرحلون!

يعرف رائحة النهاية؛ مميتة مثل سم زعاف، لكنها حتمية مثل الحياة نفسها.

يضعُ وجهَ الفتاةِ واهبةِ العسل بين قطيفةِ راحتيه، ويُعبئ جمالها في قلبه، وهو يقول لها: سوف ينتهي هذا العالم الذي يقف على قدمٍ واحدة. السبب الوحيد الذي قد يمكنه أن يدوم لأجله هو أنكِ موجودة فيه.

يواسيها ببضعة أبيات نظمها غوته، ويحتضنها برأفة قبطان.. لوهلةٍ، أو لوهم.

حين ضمها إلى صدره، سمع نبضات قلبها؛ هديل يمام.

تهجره شجاعةُ ساعدِه، وهو يحدثُها عن وعودٍ بالتواصل – لن تتم عادة– فتكافئه بدمعةٍ تسقط في بحر روحه. لحُسن الحظ، لم تلحظ الاضطراب في شعيرات الهواء الموجودة في عينيه.

يتنهدُ، مثل موجة حالمة، وهو يراقبُ ظلها الذي يوشك أن يختفي.

سوف تُبدد الدفء رسائل إلكترونية لاحقة، إلى أن تتسعَ الثقوبُ، ويسقطُ الماضي ترابــاً ناعمــاً لا يُستعاد، وتهجر الروائحُ الخرساء الأركان، ليجمعا من هواء العُمْر رملَ الذكريات.

وأسوأ كوابيس البعاد هو النسيان.

بقعة صغيرة زرقاء

"أنت تدري ما كان بعدك حالي

فترى كيف كان حالك بعدي"

صفي الدين الحلّي

الصباحُ يلفُ المدينة، والشمس المرتبكة تجاهد كي تضيء. كان الأصفر مجرد لونٍ سكبه طفل بطريق الخطأ على الشمس، أثناء حصة تلوين.

وهو جريحٌ، يقرصُ خد الهواء، ويسيرُ بلا هدى.. فالصعلوك بوصلة الطرقات المشوشة.

في الشوارع الصاخبة، المتدافعة، غير المبالية، يذرع الأسفلت الموشى بالمهمشين، فيما يدوس على ظله بائعٌ جائل كان على عجلة من أمره، لدرجة أنه أشعلَ النار في حياته كأنّه يُشعل سيجارة لصديق.

يمرُ بجوار شجرة لوزٍ تبتسم، وطائر ينبش بمنقاره الحاد عما يشتهي أو يفتقد، ونافذة لا أحد يُصلِحُ صريرها، الذي يُفزعُ

حمائم متوجسة الريش. يا للستائر، لا تكترث للشجارات في غرفٍ يعيث فيها الضوء وحيدًا في الزوايا!

يطالعُ أمـــًا تصالحُ طفلها على باب المدرسة، قبل أن يلحق ببراعم محشوّين عن آخرهم بآمال الأمهات.

قطرة عرقٍ تسقط من على جبين أحد المارة، فتستغرق الأرض طويلاً لترتوي بها.

في المدن التي يصنع الإسمنت المسلح شيخوختها، يرى عمال بناء يشيدون منازل لكائناتٍ على وشك الانقراض؛ وخنفساء تكدح غير عابئةٍ بالنهاية.

يمر بجواره سائحٌ يطوف المدن البعيدة، ويسترضي بين الفينة والأخرى كاميرته التي علقها حولِ رقبته. يحاول أن يستمتع دون دهشة؛ حتى لا يكون صيدًا سهلاً للمتطوعين بالإرشاد السياحي، أو عصابات الجريمة.

تتعاقب المؤخرات على المقاعد الخشبية على أطراف الميدان، لتبدأ حصص التذمر وحفلات النميمة.

فتاة تكاشفُ صديقتها قائلة: "إنه يعاملني كفتاة تضع مقوِّم الأسنان.. ويتسرب إليّ من نقاط ضعفي".

يلمحُ شابـــًا يقودُ سيارته الرياضية ببراعةٍ تحسده عليها الطُرقُ، وآخر يطوق العابرات بحزنه وحرمانه. متأخرًا جدًا، سيكتشف كلٌ منهما كنزه الذي لم يعرف يومــًا أنه يملكه.

تتناهى إلى مسامعه أغنيةٌ قديمة تباغتُه بالشجن الأنيق.

كلّه لغزٌ هذا الفتى الذي يُعابثُ ذقنَ السنين.

نبي القلم.. والقلق.

لو فتشتَ في سلة مهملاته، لوجدتَ معظم أشيائه الحقيقية فيها.

لم ينتبه الأصدقاء لغيابه، فهم موزعون على المقابر والمنافي والسجون، وهو أوديسيوس الخائب، الذي خان فردوسه ورحل. أقسى ما في البعاد هو إقصاؤك عن دائرة الأصدقاء، حتى تصبح حياتك قاحلة كصحراء الربع الخالي.

كلما صرخ للتعبير عن سأمه، أشار الناسُ بسذاجةٍ إلى جيبه الملآن بالحيل.

يصارعُ ضجره، وهو يطالعُ الرجالَ الذين يلعنون الضرائبَ والطقس، والسيداتِ المترعات بالشبق، الذاهباتِ إلى السوق أو جهنم.

لا بدَّ أن هؤلاء النساء ذوات الرَّحابة الطَّاغية يتهامسن: ماذا يريدُ هذا الرجل الخالي من العمل والرفقة؟!

كُلهن يملكن ألسنة وفساتين وسياراتٍ وأزواجــًا سابقين.

صفع فضولهن ومضى في طريقه.

بدا نهاره مغبرًا كجندي عائد من عدة هزائم أو انتصارات لا قيمة لها.

يملُ من السير، ويقفُ أمام شجرة أشد منه نُحولاً، ترسمُ الحلقات سنواتِ عمرها في جذوعها. يلتقيان صدفة كما يلتقي ظلُ شجرةٍ هرمة غريبــًا فائضــًا عن حاجتها. يومــًا ما ستموت الشجرة المكدرة غيلة، أو يقتلعها منشار كهربائي، لتئن وتهوي، تاركة وراءها العصافير بلا بيوت.

أفواه الطريق تلتهمه بلا رأفة.

يستوقفُ سيارة أجرة كي تقله إلى وجهته، لتداهمه برودةُ المكيف، والأغنية الهندية التي يستمتعُ بها سائقٌ تشبَّع برائحة العرق والرطوبة. على الأقل، كان ممتنــًا لقيادته بصمتٍ تلك الكبسولة المحكمة الإغلاق.

تجبره انعطافة العربة على أن يلمح وجه السائق في انعكاس مرآة تتدلى منها الحكايات كالغنائم في متناول الكفين.

على باب المستشفى، انزوى رجلٌ لم تبق في فمه سوى سن ذهبية وحيدة، أخذ – وسط سعاله الجاف– يدخنُ حكمته مثل قطار قديم.

في الداخل، تدفعه كل التفاصيل إلى التبرم؛ حياد البياض، والضوء الكابي للمصابيح، والروائح النفاذة التي لا تستأذنك،

والأرضية اللامعة، والسرير المتعالي اليابس الذي يتمدد عليه مرضى يرقدون في رهان غير متكافئ مع الموت بعد أن ضيّعوا مواعيدهم مع المعجزات.

موظفو الاستقبال الذين يملكون وجوهـًا من شمع، عيونهم مُسمرة إلى الشاشات المضيئة لتسجيل البيانات، وتحصيل النقود ممن يقتلهم الألم. تُلقي الظلال على وجوههم مسحات من القسوة والتربص. تُحدث أحدهم عن الألم فيحدثك عن المال، ثم يعود إلى حاسوبه كأنه لم يجترح إثمـًا.

فضوليون استسلموا للمقاعد الجلدية في انتظار علاج أحبتهم، يتثاءبون في غطرسة، ويشغلون أنفسهم وسط التنهدات العسيرة بمجلاتٍ فارغة إلا من الصور. يجيلون عيونهم في زوايا كل شيء، وتسقط سهام نظراتهم المزعجة على رواد المكان حيث تغرب تجاعيد المرض. يتلصصون على الأحاديث الجانبية، بحدة براغيث بشرية تلتهم جسدًا تسللتْ إليه خفية.

يثرثرون عن حذاء اميلدا ماركوس المفضل الذي ضل طريقه إلى التاريخ، وعن مذيعة الأخبار التي تقرأ النشرة كما لو كانت الكاما سوترا، وعن حوالة مالية أرسلها أحدهم لأرملة خلعت ملابسها له على "سكايب".

تمر بلا رحمةٍ عربة ضجيجهم فوق ممرات الأنين وفي مفاصل الموجوعين.

ودّ أن يصب فوقهم البرونز المصهور حتى يصيروا تماثيل ينحتُها الشقاء.

في الانتظار، يشكو الوقت من ركضه المتكرر فوق سطحه الملتهب. يذرع المكان جيئة وذهابـــاً، مثل طائر لقلق يجوس الحقل على قدمٍ واحدة، بحثـــاً عن الربيع.

ما إن أشارت اللوحة الإلكترونية إلى رقمه حتى غادر أدغالهمْ، وتركهم يتمرغون في وجوههم الزائفة.

سار بخطوات تشبهُ حفيفَ رياحٍ ليليّة في مبنى تنمو في أوردته قنوات ضيقة.

شيء من الرحمة يملأ سراديب المكان.

في دهليز مضاء بالنيون، يعبر بجوار مجموعة من الأطباء الذين يدسون في معاطفهم كلمات المواساة الباردة.

الممرضة الفلبينية ذات البشرة الجرداء والنظرة الزائغة، تقوده إلى غرفة في آخر الردهة، وتتركه وحيدًا، دون حديث جانبي يؤنس وحشته.

يُحصي أنفاسه التي تتصاعد كسلّمٍ موسيقي في دار أوبرا.

يتنهد مثل عاملِ منجم يحصي الساعات الطويلة التي أهدرها في نفق مظلم.

الأصوات تتسرب إلى غرفة الكشف الطبي كما لو كانت صدى لمطر بعيد.

تتضاحك الممرضات في حديثٍ هامس عن النظرات الفضولية، والغراميات المخترعة مع مرضى جاؤوا إلى المستشفى ليأخذوا نصيبهم من الوجع.

على الحائط، تطل شهادة جامعية يحيط بها إطار خشبي عريض بزخارف مرهقة.

يزوره طبيب، عيناه تشخصان في الفراغ كما لو أنهما على سفر. مدورٌ كما عدستا نظارته، يبدو كأنه يمر بأزمة منتصف العمر، حتى أنه يهدي عشيقاته الشابات حقيبة يد في بداية العلاقة ووشاحــًا عند إنهائها.

كاد يسألُ الطبيبَ الذي يتفحصه: أي عصفورةٍ امتطيتَ البارحة؟

يتراجع، ليُنصت إلى رأي الرجل المصاب بمرض الدبلجة: الآن وقد جربنا العلاج الطبيعي، ولم تُجد الأدوية نفعــًا، لم يبق أمامنا سوى الحقن.. لكن علينا أولاً إجراء اختبار الحساسية. سيستغرق الاختبار ربع ساعة فقط.

بآليةٍ تستعصي على الوصف، تتولى الممرضة المفتقرة إلى الغموض حقنه في ذراعه، ثم ترسم حول مكان الحقن دائرة

وتكتب تحتها التوقيت. حدق في ساعة "اليد" التي صنعتها في ذهول. يتمدد وحده في السرير ويتابع مربعات السقف فيلمح روحه المثقوبة. يتأمل زحام رؤوس الإبر التي لا تبرأ من الوخز، وكبسولات المهدئ المتناثرة على الطاولة، وأنابيب نقل الدم، وجهاز التخطيط، وباقي الأجهزة الطبية التي غُطيت بملاءات بيضاء. تصلح الغرفة للتعذيب وانتزاع الاعترافات، فكل ما فيها موحش ومحايد.

لا أثر في الذراع سوى بقعة صغيرة زرقاء – ستتحول لاحقـًا إلى اللون البنفسجي– مثل تلك التي يرسمها التلاميذ فوق أيديهم في فترات الاستراحة والشغب البريء.

الضجرُ عنكبوت يتدلى من سقفِ الغرفةِ، وهو مثالٌ ساطع على الخوف.

اللحظاتُ تمر، وقلقه ينهمر. الموت يعرض نفسه في المرايا الخفيفة، ثم يتوارى كأنه الوهم.

يندس في آخر ملجأ فقير في روحه، ويأكل بذور هواجسه: هل فات الأوان؟

ليس ثمة ما هو أسوأ من فوات الأوان.

يعود الطبيب، يتحسسُ رسغه والآلام التي تنضج تحت جلده، ويسأله عن موضع الألم. يقوس حاجبيه، ويطلب من الممرضة

حلق تلك المنطقة بشفرة ساذجة، قبل أن يختارها هدفـًا للحقنة المنتظرة.

خُذ نفسـًا عميقـًا، يأمره الطبيب، فيمتثل في وجل.

يحقنه لدهر.. يده تتحدّى إغراء المخدّر.

ينصتُ إلى إيقاع الموسيقى في رأسه، ويسبحُ بين مجرتين.

يستسلمُ للزمن، وهو يسائل نفسه: لِمَ الضوء شيءٌ ثانوي في المستشفيات؟

الحقنة دخلت رسغه ولم تخرج أبدًا. تحز في العظم، تسيخ في اللحم، تخترق أعمق ثناياه.. ولا نهاية.

تغرس أنيابها فيه بلا كلل، حتى تأخذ مكانها في قلبه، وتحصده بمنجل الألم.

يرى عُرّي عذابه، ويأبى أن يتكلم، خشية أن تقشر الأنات قناع قوته.

الإزميل يتوغل بشراسة في عروق الرخام، ورأسه يدور مثل حوّامة، وروحه تذوب في حمض قوي المفعول.

يتدَفّق السائل الغامض في كَيانه، كما يتدَفّقُ الماءُ في سريرِ نهر.

أثر الوخز يشبه رصاصة تطل من ثقب في رقبة، أو نجمة بركانية صغيرة منطفئة.

ها هي ذي الهاوية تتسع، وها هو يهبط إلى المتاهة بجبين تجعد وملامح مكفهرة.

يتأرجحُ في بطنِ حوت، والحقنة تنسل من العروق والشرايين، كما ينسل نهر من مجراه.

لوهلة، احتفى بفكرة كونه ميتـــاً، وهو الذي يوقن – منذ تَقَبُّل أَولَ مراتِ موتِه– أن الموت ليس لحظة واحدة بل هو خط متصل؛ نموت منذ الولادة، حتى نموت فعلاً.

نموت؟

لن يكتب سيرته الذاتية إذن. سيستسلم للموت الخاص، المنحوت برهافةٍ وعُمق، ويكتفي بالحروف والسطور والفواصل التي تغلغل فيها حتى صارت جزءاً منه. لن يقول لأحد كيف كان الفتى من أنصاف الآلهة، وكيف أصبح الرجل من أنصاف البشر.

يصعد اسمُها على شفتيه، ليصرع تنين الحزن بسيف البهجة.

خَياله المحمومُ بالمتأنية على نحو مذهل، يداعبُ ذَاكِرته.

امرأة صقلتْ ظلها، تشبه جميلات الأبيض والأسود. وجهها المستدير يمنحها ملامح طفولية لن تبرأ منها.

ضوء القمر يتهدجُ في مد عينيها، ليضيء نافذةَ وجهه المُطفَأة. كانت تقول له: هاتِ يدك واتبعني. أغمِض عينيكَ ولا تَخَف.

أريدك داخِلَ دهليز قَلْبي، ولا أريدُك أن تعرِف الطريق؛ حتى لا تَهرُب مني!

كانت ضحكاهما معـــاً تُذيق هذا العالم الحانق على حُبِّهما مرارة هزائمه. وحين تلتقي الأعين، كانت عيناها تقولان: فمي، هذا العصفور الجائع، سُدّ جوعه بقبلة.

يسألها مرارًا: من أين جئتِني وأنا قلعةٌ شريدة بعيدة؟ كيف أحييتِني وأنا الذي استغرقني خذلان الحياة؟

تجيبه بابتسامة غامضة، ثم تخلعُ عنه رداء العمر، حتى يعودَ إلى طفولته الوديعة وألوانه الخشبية التي لطالما جمّلت لوحاته الساذجة.

لكن الطفولة أمدُها قصير: صدى يبتلعه صدى.

رآها بالأمس، وهو الذي كان يُصلّي لقانون الصدفة كيلا يضعها يومـــاً في طريقه.

تابعها بعينيه، عبر واجهة زجاجية قاتمة، وهي تتأبطُ ذراع آخر، يضعُ على وجهه تلك الابتسامة التي تتكتم على خيانة، ونظراته الزائغة تشي برجلٍ يضاجعُ نساء بعددِ أيام غياب امرأته عن المترل. لعله يناديها "أميرتي"، ثم يخونُها مع الإماء.

تمتد أنامل هواء عليل تفتح أزرار بلوزتها السكرية المقلمة، وتتمايل مثل ريشة مزهوة في قُبعة.

مد يده، وكاد أن.. لولا...

أهو نبلٌ أن نُحِبَّ ونتخفى؟

ظل يتابعهما وهما يبتعدان عن ناظريه، حتى ابتلعهما ضبابُ الطريق، في بلادٍ ممتلئة أجفانُها بالغيم.

لا بأس، يقولُ لنفسه، ستمرُ يومـــاً من هنا، وستقرأ كلماتي خلسة، لتدرك أنني لم أنس.. ولن أنسى.

يا لطيفكِ العابر خببـــاً في الذاكرة، كأنه رسول الأمنيات.

ينوء القلب بالحكايات، فمن يحمي كلامَ الصمتِ من عبث الهواء!

إنه شعورٌ مضطرمٌ ومضطربٌ وحزين، وغائمٌ إلى حد ما. حنينٌ مرهق، مثلَ شغف الصورة بالإطار، قبل أن يخنقها الغبار. كأنه شفةٌ تتخيل القبلة، ونوافذ تتقصى البحر، وغزلٌ يأسر فتى الجيران.

يتغلغل فينا الحزنُ بأشكال مختلفة وفي أوقاتٍ يختارها بعناية جرّاح.

يتذكرُها: الضحكة المكتومة مثل مقدمة الغمام، والنظرة الغافية التي توقظ الوردة من سباقا، والشعر المنفلت الذي يهطل مطرًا على كتفيها، والعِطرُ الذي ينتشر سخيـــاً إلى أن يصيبه بالدوار.

كانت تعبرُ شرايينه يوميـــًا، من أقصاها إلى أقصاها.

تجوسُ داخل أحلامه، تلهمه، وتبقى.. فالإلهام قد يأتي عندما نريده، لكنه لا يرحل إلا عندما يريد هو.

لحضنها رائحة التفاح المخمر، ولصوتها الناعم نقرٌ خفيف على نافذة الأذن، خصوصـــًا حين يكون كلامها خارجـــًا للتو من معابد الجسد.

يغوصُ في شفتيها المسترخيتين كما المرساة تشتهي القاع، ويلمسها برفق، فالأصابع اللينة نابعة من القلب وليس الجسد.

كانت تُمسكُ يده وتقودها إلى مدائن أخرى، وأرض الأنثى، ليبعثرَ أمطاره في مداها ويسكن جنتها الأخيرة.

تذوبُ، كنثار دانتيلا قذفتْ في الهواء، وتخرج رغباتها من الغرف السرية إلى الهواء الطلق.

والمرأة التي تخشى الذوبان بين أحضان رجل يجب أن تتعلم من السُكّر.

السُكّر لا يخشى الذوبان؛ لأنه يعلم جيدًا أنه يشارك في صنع متعة استثنائية مع المكونات الأخرى.

تقول له وهي مغمضة العينين: هذه الغيمة الهَشة الّتي تَسكنني، تصنع عاصفتها الخاصة، كلما عزفتْ على جسدي أصابعُك.

لا ينسى التفاصيل؛ الخشخشة الواهية من السلسلة التي تتأرجح متدلية من عنق ينفر منه عرق أخضر صغير، النحر الذي يشكل نقطة فاصلة بين موت شاهق وحياة باطنية، حقول الشقرة التي تنصبُ له فخ اللذة، وأصابعه التي تقود دبيب النمل فوق جلدها حتى تغرق في حرارة الألوان.

يُفرط رمانها حبة تلو أخرى، والرمان ياقوتٌ مسَّه الشجن.

كان يُقرضها أصابعه، حين تطلبُ منه مُساعدتها في رفعِ سَحّابِ الفُستان، فتلتمع نطفة فرح في أحشائها.

أحدُنا فحسب تغيَّر، والقلبُ قُلّبٌ.

انكسر عنق الصدفة التي جمعتْ بينهما على غير ميعاد.

يمنحها قبلة الوداع، وكرنفال الارتباك ينصب شباكه حولهما. يهمس لها: لا أقول لكِ إلا كما قال الصوفي عزيز إلى إيلا "أرجو أن يجدكِ الحُبُّ عندما لا تتوقعينه"[1].

تعمّد أن تكون القبلة مبتورة، لعلها تصبح فاتحة لقاء آخر، لكنها أطفأتْ الأنوار وانسحبتْ من أيامه بهدوء، تاركة بعض الفُل يبكي رحيلها.

---

[1] إليف شفاق، "قواعد العشق الأربعون: رواية عن جلال الدين الرومي، ترجمة: خالد الجبيلي، دار طوى للنشر، لندن، 2012.

لعلها مسحتْ رسائله الإلكترونية، ومزقتْ صفحاتِ إهداءاته من الكتب، وأخفتْ كل بطاقاته البريدية الملونة، وهو الذي يحتفي بتذكاراتها: روايات إلياس خوري وسمر يزبك، وقصائد أدونيس، وعلبة بخرزة براقة تضم قرطــاً منسيــاً على هيئة شمس صغيرة من فضة، وأربعة عشر دبوس شعر.

دائمــاً لا وصول يا عربة الأسى، فلا شيء سيعيد روعة ما مضى.

وهو انتظارٌ.. ينتظر.

يطولُ الرحيل بينهما، يتحول إلى سكة قطار لا تنتهي.

هي الآن قصة يتيمة على "هاتف ذكي".

يكتب لها رسائل لن تصل، فهي مرسلة من منسيين إلى أشخاص لم يعودوا كما كانوا؛ والكلمات أكثر الوسائل شقاء بين العشاق.

يكتب قائلاً:

"لأن صوركِ تحمل بعضــاً من ألقكِ وروحكِ التي تضيء الأمكنة.

ولأن صوتكِ الغائب عني سببٌ وجيه للحياة.

ولأن وجهكِ الباسم يمنح الدنيا معنى جديدًا لم يَرد من قبل في الكتب والموسوعات.

ولأنكِ الليلة الثانية بعد الألف التي لم يلحق أحدٌ بأن يعيشها أو يرويها.

لهذا كله وأكثر، أتأمل صوركِ الآن وأبتسم في طمأنينة".

أمنياتٌ كثيرة نُعلقها على ظهر أيام قليلة، أضعف من أن تحملها.

وعلى الشّرفات القديمةِ، نُعاين بقايا أكُفٍّ خادعتنا.

على شاطئ البحر الذي يداعب رذاذه وجوه العابرين، كانت تخفق في الهواء مثل فستان تحرر من قيوده، وهي تسائله: قل لي، إن كان هذا البحر في حوزتي.

يرسمُ لوحة طبيعية لحورية البحر، ويجيبها بالقول: هو شلال من الرغبة يتدفق في رحلته من خليتكِ التي تقطرُ عسلاً، مرورًا بشبق الخاصرة، وصولاً إلى إسفنج القدمين، حتى يلامس نهايته السعيدة.

تترقرق موجة مراوغة عند أطراف قدميها، فتسيل منها الرقة.

تقولُ تلك التي كلما رَمَشَتْ عيناها، هب نسيمٌ من الجنة: الموج عالٍ جدًا اليوم.

يردُ قائلاً: ربما لأنه يريد أن يعلو جدًا كي يلمس خصلات شعركِ التي تُخرِج الطبيعة عن طورها. البحرُ موجُه طامع، يحاول ولا ييأس.. فلا يأس مع البحر ولا بحر مع اليأس.

هَربُ ابتسامةٌ بينهما، قبل أن تسأله بمكر: لِمَ تحبني؟

يجيبها وهو يحصي على أصابعها ابتساماته: لأن في ثنيّات أصابعكِ؛ في العُقل الصغيّرة منها، حنانُ الدنيا كله.

اليوم، اختفى البحر، وغاب جاك كوستو، وصارت اليابسة مجرد صخرة عارية وحقل من رماد، لا يزوره إلا المستوحدون والأيتام والعاطلون عن العمل، بناؤو العدم.

يُصيبُه الزَمنُ بالمسافةِ ويركُض.

كم هي قصيرة جدًا تلك الأبدية!

في هذا الحُبِّ الذي تراكمت عليه الأخطاء، أين هي الكلمات التي لم يقولاها، والأشياء التي لم يفعلاها؟ أين هي؟

كلما فتح شُبّاكَ الصباح ليتنفسّ؛ اختنق بغيابها.

في الليالي الطويلة، ينظر من كُوَّةِ عمرهِ، ويتساءل:

أيها الحنين الذي لا يصبر على فراق، الفجر لاح في السماء، فلِمَ تؤجل آمالنا إلى غدٍ بعيد؟

أيها الأمان الذي نشتهيه، هل صان من نُحِبُّ شعلة الهوى؟

يتردد السؤال مع الصدى، لكن في أعماقه أعماقه تأتي الإجابة: من يُحِبّ يهلكه الفراق، ومن يعشق يتلفه الانتظار.

كم يتأذى الهوى من الاصطدام بالواقع!

ينظر إلى يده. جلده الرديء تَهَرّأ بفعل حماقاتٍ مغوية؛ وحده الأملُ قد يخيط له جلدًا جديدًا.

فجأة، تنكسر حدة الوجع، فيشع بعافيةٍ متوهمة.

يمد الطبيب له يده بورقة تضم قائمة من الأدوية والمسكنات، وينصحه بوصفة تقليدية قد تمنح الأوجاع بعض السكينة.

يخرج إلى رصيف العمر، وهو الذي ضاعتْ منه حزمة أعمار لا تُحصى.

يمشي وروحه تكابد. كانت تنقصه غيومٌ أكثر ليبكي.

هذه المدينة ليس لها كتفٌ يتكئ عليه. هي فقط تسعدك في النهار، كي تؤلمك في الليل.

هذه المقاهي التي يزعجه صوت رشف القهوة عليها، ليس بها كرسي أعمى ليسند ظهره إليه. يجلس روادها لتبادل العزاء في حياة خاوية. يائسون، وصاخبون، لدرجة أنهم عندما يذهب كل منهم إلى سريره يكون قد نسي أسماء الآخرين.

كم نرتدي البداية بأخطاء عتيقة!

تُطيِّر الريح النفايات المهمَلة. يلمح في الهواء صفحة من رواية "دون كيخوتة" فيها عبارة "لا تهربي.. أيتها المخلوقات الجبانة الخسيسة، فإن من يهاجمك ليس إلا فارسًا واحدًا"!

يتمنى رئة قوية كي يتنفس هواء الكون، لكنه يكتشف أنه أصبح مجرد عاشق مرسوم في فنجان قهوتها.

الأرض تفتحُ جُرحها للعابرين، وقلبه أيضـــاً.

الآن تكتمل الحكاية.

عشتُ.. تقريباً

"اللغةُ تفضحُ كلّ شيء"

هاينريش بول

الآن يكتملُ الزمان، فأصبحُ جزءًا من الماضي.

أنتزعُ الأيامَ إلى الأبد، كنشيد قديم في فم الريح.

أروي عن حياتي، فقط لأكتشفَ حقيقة الشيب الذي اعتراني.

منذ طفولتي أدركتُ انهمار الساعات وهي تتوسل للخريف كي لا يأتي في موعده. ليتني استطعتُ في طفولتي قياس حياتي باستخدام مسطرتي الخشبية.

مع تباشير فجر له رائحة طفل وليد، في تلك المدينة النائمة على ضفاف نهر الراين، الذي يعرفُ انتخابَ الجَمَالِ من القبح، لم أكن في حاجة إلى أحد.

بللٌ خفيفٌ يلمسُ الطرقاتِ، وأنا في الرحم الأمومي آمنٌ ومختبئ.

المخاض دفقة من الضياء، وحصة من الألم.

الولادة ويل، لكنها عنوان الوجود.

النداء العاليّ يمزق سكون المجرة. هلاّ جاهرتَ باندهاشك أيها الملاك!

وحين أخرجُ إلى العالم، كائنـــاً جديدًا، أطفئ ظمأ الساعات وأقتنصُ الرذاذَ من آخر سحابة عابرة.

كم أود أن أكون حُرًّا طليقـــاً كطائرة ورقية أفلتت من خيوطها.

قلبي يمشي على أوتار الماء الرخوة، لكن متعتي في الفضاء!

والمواليد من برج البراءة، إلى أن يثبت العكس.

أمي، تلك الحانية كغابة مغمورة بالنور، تُحكم الأقمطة حول مضغة الجسد الواهي. تنسج لي ثوبـــاً خالصـــاً شديد النعومة، لا يجرحني فيه أثرُ خياطة.

هي شجرة كافور ظليلة مباركة، أرى في حضنها خارطة للروح، ودربـــاً للطمأنينة.

والرجل، كما يقول ابن عربي في "فصوص الحكم": "مُدرج بين ذاتٍ ظهر عنها وبين امرأة ظهرت عنه، فهو بين مؤنثين".

دعاؤها مَزامِير اسْتِغْفَار. صوتها يأخذُكَ لمعانقةِ الملائكة، وأنت تكبرُ في الخفاء.

رضيع، يفطمونه برفق عن مذاق الأرجوان، فتمتلئ شفتاه بكلمات أكثر خصوبة.

طفل، يتكئ على إفريز السماء مع كل خصلتيّ شعر أهملتهما الريح على كتف متجردة. يرى أن العالم هو أقدم يتيم في التاريخ؛ لذا يبدو لكثيرين غامضـــاً وحافلاً بالأسرار مثل ثقبٍ في باب العدم. يهوى النزهات القصيرة، لكنه يعود إلى البيتَ كل مساء مثل نبيّ خائف من أن يعرفه الأسفلت ويميّزه الناس.

صبي، ينام ووجهه إلى النجوم، بسذاجة من يجهل ألغاز الحياة، هذه القطة السائبة؛ يحزر بعض معالمها، ويفكك بعض رموزها، لكنها تبقى غامضة مثل غابة يتأرجح فيها القلق. يود لو أن يُكسِّر وجهَ زجاجِ الطّبيعةِ، وهو يتساءل: لماذا تفر الحياة من المستحيل؟

فتى، خفيف الوثب، يمشط الريح ويفرق الهواء الساكن، ويترك الأحلام على حافة النافذة، ويعزف على الخشب السميك في البيت البعيد حفنة ذكريات. يفرح بالانتصارات الصغيرة، وتستيقظُ في أوردتِه النظراتُ المرتبكة، واللمسات الحائرة، والأفكار العفوية الصاخبة.

شاب، ينظم قصائد تكاد تخلق الحُبَّ خلقـــاً في قلوب الآخرين؛ يقطف مواسم الشهقة الشاردة، ويروض الممانعة الخفيفة للفتيات اللاتي تعاكس الحفر اللئيمة أحذيتهن، والنساء الخبيرات في سحق أعقاب السجائر بكعوبهن العالية.

يسكب كلماته في الأرحام المشتهاة، ثم يحصي النساء اللواتي حبلْن بظلّه.

رجل، يهوى تعليم الأعناق الاستدارة، والسيقان الموسيقى، والخصور التثني.. لكنه لا يشتهي حموضة أجساد النساء ذوات الفساتين الزائفة، الشبيهات بعُلب الألوان، ويفضل عليهن الجميلات اللاتي لا يلجمهن الحذر، والقيثارة التي تهبه لحنها، والكتب التي ينام بنفسج حروفها في حقول الذاكرة.

تغويه النساء اللاتي لا يتبدد أريجهن، وينضجن بين يديه كعناقيد زاخرة بالعنب، لكن لا شيء يفوق "الفتوحات المكية" و"مائة عام من العزلة"، و"فاوست"، ولا قبلة ألذ من إيقاع "البوليرو"، و"الفصول الأربعة"، و"السيمفونية الخامسة".

أليس العقل هو المستفيد الأول من هزائم الجسد؟!

كهل، يتنفس قسوة المدن الذئبية المليئة بهتافات تكدر صفو التواطؤ، ويحرق يديه بلهب الكتابة؛ قهوة البقاء. لا يعبأ بالخصلة التي انفصلت عن الجبين، ويكسر جرة الأسرار على وسائد الغبار، ويدق على شاطئ الذاكرة أشرعة وعباراتٍ لا تغري أحدًا.

الزمن، يلعبُ معه لعبة الحزن.

لعبة تجد فيها نفسك محاصرًا بمجموعة من أفراس النهر الجائعة.

حياة تشبه حلمـــًا واحدًا طويلاً، مع فتراتِ استراحة.

نصف فَناء، يرضع من ثدي حياتنا حتى نجف؛ وفصول متيبسة: صيف يسكن بيت الوهم، وشتاء يقطع حبله السُرّي مع الحقيقة، وخريف يرتدي معطف الغموض، وربيع سقطَ من شرفته العالية.

وأيام عُسرة وشدة، مثل فك سمكة قرش وهي تطبق على فريسةٍ استسلمت للنهاية.

نواصلُ النمو صامتين، وعالقين بين الطيران والسقوط.

وحده عاشَ في طمأنينته، مُلوِّحـــًا بالوداع في كل خطوة، وملازمـــًا أحلامه مثل سترةٍ ضيّقة.

كذبتْ الأغنيات عليه، وهو كذَبَ على النساء اللواتي علقن بماء القصيدة، وعلى قلبه الذي أصبح ظلاً لا يُدميه المشي الطويل.

يرفو أثر الطعنات، ويحتفي بالجُرح الذي تغازله المعرفة، ويراوغ المنفى في الليالي المشوهة التي تختفي فيها الخطوطُ على راحة الكف. وفي الأيام الملتبسة، نكتشف أن اجترار الألم يحييه.

فقط في قلبِ أحبتِهِ، سيكبرُ بسرعةٍ مُفرطة.

وحين يسأله الأصدقاء عن طفولته، يجيب ساخرًا: بُعثتُ شابـــًا في الثلاثين.

لا يوجد ما يشي بعمره، فما زال في هذه السن ينظر إلى العالم بعينيّ من جاءه للتو.

والنظرة فتيل.

اجتاز زمنَ القوائم السوداء، والإقصاء، ولم يتُب يومـــًا عن الجرأة والمجازفة في بلاد كانت السماء فيها قريبة إلى درجةِ أن الناس كانوا يمشون منحنين.

في زمن الحذلقة الماكرة، قرأ على الناس صفحاتٍ من كتابِ الوعي، محذرًا من أن الحكمة لا تعني قبول الذل، والبؤس لا يبرر الفساد، والسلبية لا تُفضي إلى السلامة.

لم يسلم من قلمه رجالُ الأمن المسعورون الذين يغطون رؤوسهم بقبعاتٍ تضيق الحصار على الحرية، ولا الجنرالات الذين أدمنوا الاسترخاء فلم يعودوا يريقون من الدم إلا ما يسببه جرحٌ أثناء الحلاقة.

استلَّ قلمه ليواجه أنظمة ظامئة إلى الهيمنة وتهدي شعوبها بدلَ الوردةِ مقصلة، حتى سقطت الدول العاجزة في اللحظة المناسبة كقلعةٍ من رمل جاف.

بخوذةٍ محكمة، واجه أنقاضَ المتلونين الذين يشكرون الهلاك ويتآخون مع الهاوية، والمنافقين الآيلين للسقوط الذين ينتقمون من أنفسهم في الآخرين ليُسطروا تاريخَ الضغينة، وخريجي مدرسة ضِعاف النفوس الذين يرضون لخيباتهم أن تتكرر.

لم يتبع أثرَ أودسيوس في رحلة النبيذ والضياع.

مقاتلٌ، تستعر في مَراجله نارٌ قديمة.

مُرتبٌ لدرجة مقيتة. يرتبُ حتى انحيازَ عينيه وعاداتِ أصابعه.

مهذبٌ، يطرقُ بابَ الثلاجة مستئذنــًا قبل أن يفتحها.

رقيق، يرفع قدميه عن وجه البلاط؛ كي يحفظ له كبرياءه.

ساحرٌ خانته خفةُ يده، لكنه منذورٌ للانجذابِ ونظراتِ الاستحسان المتمهلة.

هادئ كجُرح ملتئم، مهما تدفقت ينابيعُ دمه.

سعيدٌ، حتى وإن امتلأ بتعاسةٍ لا تُوصف.

وفيٌّ، لن يصنع الفلك، خشية أن يخطئ عد أصدقائه وقت الرحيل، فيترك وراءه أحدًا يُحبّه.

عاشقٌ، يدركُ أن الموضعَ الذي يغطيه بحنان يتعذر على المحو، كأنه حدائق مَسقيّة بانتظام.

سيخونُه القلب يومــًا، لتُسلم النبضاتُ حِدَّتَها، ويخذله الخيال. لا شيء سيخفف رغبته في محاولة تقبيل آثار مرورها الخاطف.

اليوم سيتكلمُ كعرافٍ أعمى يرشد الناس إلى جناتٍ لم يرها، ويقول: لن يكون موتيَ الأليفُ سوى أبديتي، وولادتيَ الأخيرة.

يوصي الرفاق بأن يقرأوا "انقطاعات الموت"، رواية الماكر جوزيه ساراماجو، الذي يكتب دون ضغينة أو كراهية حتى أنه يدعونا إلى محبة الموت الذي يعيد تشكيل من تبقى من الأحياء.

رغم كل ألاعيب اللغة والمراوغات الأدبية، فإننا لم ننس أننا ولِدنا وفي قلوبنا أثرٌ لخذلان ما.

بالمناسبة، لم أعد بريئـــاً!

ألم يرسخوا في أذهاننا أن السوء يربضُ في نهاية حياتنا، لا في بدايتها؟

كأنه صحراء تسخر من الخرائط. يبحثُ عن دروبٍ جديدة وسماء لا تُمس، وشلالاتٍ لا يقفزُ فوقها أحد.

ها أنا في منتصف الحكاية مرة أخرى. لا مخارج حريق هذه المرة.

هل كُلُّ مَا مَرَّ بنا كِذبَة متقنة؟

تفرُّ المياه خوفـــاً من أبواق السفن في اندفاعها الأخير، ولا يبقى ساكنـــاً سوى حصى الأعماق.

سيمسي الرحيلُ يومـــاً جارَ الحُبِّ والعاداتِ الوفية.

بألفِ لونٍ يتلألأ الموت، ليقول كلٌّ منا في النهاية: لقد عشتُ.. تقريبـــاً!

إثمنا الجميل

".. فالحذرَ الحذرَ من رؤية المُشْتَهَى بعينِ الحَسَن.. كما يَرَى اللصُ لذَّةَ أخذِ المال من الحرز.. ولا يرى بعينِ فكرهِ القطْعَ. وليفتحْ عينَ البصيرةِ لتأمُّلِ العواقبِ، واستحالةِ اللذةِ نغصةً، وانقلابها عن كونها لذةً، إما لللِ أو لغيرهِ من الآفات، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب. فتكون المعصيةُ الأولى كلقمةٍ تناولها جائع، فما ردت كلب الجوع، بل شهت الطعام"[2]

هل شفيتِ من حُبِّي؟

أنا لم أبرأ منكِ بعد.

في العتمة، ترسمكِ عيناي، وفي اللون والضوء أسافرُ على دَرَجةِ الرّيح كي ألمس طيفكِ البعيد.

لمحتكِ قبل أيام. كنتِ تتحدثين مع رفاقكِ مثل كوكبٍ مُشع، عن إنجازاتِ الحاضر وخُطط المستقبل.

---

[2] ابن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق: محمد بشير عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، 2003.

بدا لي ذلك مستغربـــاً من امرأة عشقتُ جنونها المدهش وفوضاها المحتشدة مثل أحجارٍ كريمة موروثة.

أخذتُ أتأمل تحولاتِ ملامحكِ، وتأويلاتِ الكلمات التي لم تقوليها عنكِ.. عنا.

لم تغب ضحكتكِ الفريدة التي تنسكُب مِن فَم الغيوم.

ما زلتِ كما أنتِ: وردة تنقذ الطبيعة من الرتابة.

ما زلتُ كما أنا؛ لا يعدل حنقي عليكِ إلا اتساع قلبي للغفران لكِ.

يا سيدة الشمس،

الأيام ثقيلة ثقيلة، وأنا عاشقٌ يُداوي في صمتٍ أساه.

كل ما فعلتُه في غيابكِ شيءٌ واحد: نسيان الحياة.

غارقـــاً في حبري، أذرع غرفة أيامي، بعد أن اختصرتُ الكلام في حكايتنا الوادعة. لا ليل ولا نهار يلفّانني وأنتِ بعيدة عن مسّ يدي.

يكمل الليل دورتهُ الدمويّةَ فيّ، وأنا في انتظار ندى الصباح الخفيف، أحلم بالاختباء في بلورات أنفاسك.

أحدق في كل تلك الوجوه الحجرية، لكن لا شيء يتحرك فيّ. لم أعد سوى حَجرٍ آخر في هذا التمثال البارد، أو صخرة لم تعد تلامسها موجةٌ تائهةْ.

ندمي يشبهُ الحُبَّ، وموتي يتكرَّر.

وفي الحياة صروفٌ وأحوالٌ قد تجعلها تضيق، حتى تظن أن الموت هو البديل الآمن.

القدر جَرحَنا معـــاً.

ومنذ ليلتنا الأخيرة في تلك المدينة التي نجهل هويتها، وأنا أحبس أنفاسي كلما تذكرتكِ وأنتِ تسكبين كتفكِ الساحرة من فستان السهرة، وتضحكين، ثم تحارين في خطوتنا التالية. فجأة تصيرين عرافة، وتقولين لي: افتح كفيك؛ لتطير النُّبُوْءات!

في شوارع تضوَّعت برائحة الياسمين، نصغي فوق رمل الممشى إلى صوت روحنا المتمردة.

نجترح معجزة صغيرة، قبل أن ألمس باطن كفكِ، لأجرّبَ جلالَ طقسنا الخرافي.

أرخي الستائر، وأشعل نارًا لا تنطفئ؛ إنه المساء وأنتِ الآن جزيرةٌ تغفو فوق دواماتي الساطعة.

في المساء المزروع بنا، أسكب البرق، وتصيرين قنديل زئبق، فيما تتهيأ السماء لحَباتِ عَرق حربنا المؤجلة.

حين ضممتكِ لتلتحفي بدفئي، بدتْ شفتاكِ زورقـــاً يجدف باتجاه بهجة الليل، واستيقظ هُركِ السري ليحتويني. أما عيناكِ فقالتا: اخدشني بأَظْفار رغبتك حتى يفيض الماء.

دائمـــاً للإثم جماله!

ها أنا أرفع خصلات شعركِ بخفة، وأعزف بأصابعي على آلة خَصركِ، وأنتِ يبادر قمح تطوق عُنق الحقل بِطَوق مَرمَر.

ها أنتِ تهاتفينني وتقولين: مُتعَبة، فأين كَتفك؟

نبرة صوتكِ ساحرة في الحزن والتعب.

يسود بيننا صمتُ ما قبل الانفجار في البكاء خلف شاشة الهاتف.

فهل كان حُبُّنا افتراضيـــاً؟

هل تبعثر الحُلم، حتى طمسه غبار الواقع والطبائع؟

هل كانت مشاعرنا ورسائلنا مجرد مغامرة تنتهي باعتذارٍ مهذب ووداعٍ مبتور؟

لا أحد يناولني سُلّمـــاً من خيال، كي أطاول سماءكِ وأقتنص إجاباتٍ مقنعة.

اتكأ غيابكِ الثقيل بقوة على منصة الأمل، حتى تكسّرت الأعذار والآمال.. وقلبي!

حُبُّنا جريمة كاملة، تطاردني الآن في الصحو وفي المنام.

ما عدتُ أثبتُ في مكان.

أحيد عن دربي؛ لأهدئ من روع روحي، وأسافرُ مع غرباء إلى مدن غريبة، يُقال إنها تفوح سعادة، علّني أنشئ صفحة

جديدة، وأنا الذي لم أطو صفحتنا الأولى؛ ثمة دائمـــًا عزاء في السفر مع إنسانٍ لا يعرف عنك شيئـــًا.

أبحثُ في نفسي عن الشجاعة اللازمة لإعلان الضجر من كل شيء. أنكر الزّوالَ واليأس، وأبحث عن نجمةٍ وجهكِ وأنتِ تنطقين اسمي.

أما حروفُ اسمكِ الأربعة فهي كتابي الأثير.

لم يبق مني سوى رجلٍ تصطف في وجهه التجاعيد، يَجرُّ انكساراته، في بيوتٍ تتداعى من طول الانتظار. أطالع ساعةً جدارية لها مظهرٌ حزين، وأكتب بأبجدية الآلهة لكِ وعنكِ، وأهنئكِ كل عامٍ في عيد ميلادكِ برسائل حُبٍّ لن تصل.

أعلقُ حروفي على مِشجبِ العُمر المُتهالك، فتطير فوق بساطٍ من حنين؛ كأن قلبي لا يلتئم.

أيتها البعيدة، كُلُّ النساء مُرادِفُهن أَنتِ.

أيتها المبتعدة، الأشياء الجميلة لم تعد تفتنني في غيابكِ.

كرياتُ الدم البيضاء التي ظهرتْ في آخر تحليل دم أجريته، مُعرَّفة باسمكِ وفصيلتكِ ورنة صوتكِ المميزة.

سأترك هنا زفرة أسى وأنتِ تمنحين الباب لحظة إغلاقه صريرًا يشبه أنين طاحونةٍ في ريفٍ منسيّ، تاركة قلب رجلٍ مهشمٍ، مثل سياج عصيّ على الالتئام.

أستلقي على شرفة الصمتِ والرقادِ المضطرب، وأستذكر ندمـــاً مفرطـــاً في إنسانيّته، وأبحثُ عن حرف الختام.

يا ليدكِ، التي ضيَّعتني وسط الزحام!

يا سيدة الشمس،

ما زلتُ أحِبُّكِ، فاغفري لي جنوني.

ما تيسّر من السفر

"ليست بلادًا،

تلك التي لا تبرح تروضك لتستكين

أو ترحل

....

ليست بلادًا

وهي تخبئ ماءها

وأنت ناشب في العطش،

تلك التي تتلصص عليك وتعريك عند أول عثرة"[3]

عزيزي (...)

يا صاحبي في درب الآلام، تقتلني طَواحِين الحنين.

بل يخنقني هذا المنفى باهظ الثمن، الذي أعيش فيه مثل رمال بلا ذاكرة.

---

[3] أحمد الملا، قصائد الحرب، جريدة "الحياة"، لندن، 17 سبتمبر 2013.

أعبر على جثة الماء، مرتديــاً جُبَّة الخوفِ، ثم أعتلي جبلين من الملحِ، فتسقط مني مفاتيح الكلام.

هنا الطقس قاس، فلا معطف يحميك عندما يمر بك برد الجهات، غول هذي الأقاصي الكئيبة.

هنا الليل طويل، والجفاء عنوان البشر.

إنهم صناديق مغلقة، ومغلفة، خشية أن يطلع على مضمونها، أو مكنونها، أحد. سماعات مشغل الموسيقى في كل أذن، والأعين تتفادى الجميع. في أفضل الأحوال، يتبادلون الابتسامات الجرسونية منتهية الصلاحية ثم يرحلون. في حقيقة الأمر، تتسع شفتا الواحد منهم في قوسٍ لا يشبه الابتسامة. هذا الغموض الشرس،يفترس قاماتهم ويقضِم أرواحهم كأنه في حضرة القسوة.

تعلّمتُ من تعاملاتي معهم أنه لا يوجد في هذه الدنيا ملائكة؛ فقط علينا أن نبتعد عن الشياطين.

لكنك هنا، تعرف ما الذي يكبلك هناك، في موطنك، بئر الخيبة، الذي لفظك مثل رحم يجيد الرجم بعد أداء وظيفته.

بُيُوتُنا حَزينة كأنَّ مفاتيحها لآخَرِين، في أوطان تُوزع على أهلها الشقاء بالتساوي.

حتى أوراق الأشجار وتراب الأرض وعيدان النباتات، صارتْ أرض الشوك والقتاد، بعد أن خضعتْ لقانون مشين

صاغ محتكرو السلطة كل بنوده ومواده البائسة. في الوطن الممزق من القلب إلى القلب، كل شيء مكتوب على ورقِ اللعناتِ، كما لو أنه حداءٌ مسه الأنين.

وأنا قلبي امتلأ بالحكايات وشواهد القبور.

الكائنات المُتحفية هشتني، وأنا الذي كنتُ أرى فيها صداقاتٍ فوق تقلب المزاج وتغير الأحوال والأزمان. تعبتُ من مُشعلي الفتن الذين يصادقون أشباحهم، حتى تنتخبهم الكوارث. مللتُ من الذين يحتطبون الشائعات مثل قاتل متسلسل، ثم يمضغون تبغ الأكاذيب وسط مزاحهم السخيف.

أنام مجوّفـاً كقارب، داخلي موحشٌ كغابة، أو كوردةٍ هربتْ من عِطرِها. أمارس حرفة الوأد، علّني أمحو أثر من أحببتُهم في نفسي، ثم أرثيهم بكل الشجن الذي أتقنه.

لم يكن لديّ إرثٌ أتكئ عليه في تربية شقيقاتي وشراء علاج مقلّد لأمي، من ذلك النوع الشبيه بأدوية السعال والصداع المهرَّبة التي تنام على رفوف المتاجر الصغير، ويروج لها مندوبو المبيعات.

أشاهد على شاشة التلفاز حروبنا بالوكالة. يكاد التلفاز يحترق من أثر ما يُعرض داخله، وأنا جالسٌ أشاهد الدخان. أتابع التُجار، والفُجّار، والعسس، والمحظيات، يصفقون في حضرة

"القائد" ذي العينين المطفأتين، الذي يقود جوقة العميان إلى مزيد من التيه، ويُبقي الحروب مندلعةً كي يشعرَ بوجوده. أتذكرُ رواية إبراهيم نصر الله "عو: الجنرال لا ينسى كلابه" عن الجنرال المستبد والكلب المطيع؛ إذ "يطير قلب الجنرال حين يراه أحياناً يقضض عظمة عارية بمنتهى النشوة. فيهمس: من المهم أن يحس، هذا الحيوان، بأننا نقدم له شيئاً مقابل نباحه"[4].

سبحة الأغاني الوطنية تمجد الجنرال، بغض النظر عن الأنات المتدحرجة من غصّةٍ في حلوق الضحايا.

وهو ينسى أن الضحية تحمل في نفسها مرارة وتشوهاً، يغذيان روح الانتقام، لا بالضرورة من جلادها السابق، ولكن أيضاً من أي كائن يقع تحت يدها، أو تُصادفه في طريقها. من أين للضحية بهواء نظيف لم يمر بكل تاريخنا الدموي ليتنفسه؟

وحيدٌ مثل آخر ورقةٍ في الطابعة؛ إن حدث وتخليتُ يوماً عن يقين الوحدة، فإن عصا الندم تلقنني درساً في الآفاق المخادعة ودوامات التفاهة القاتلة.

أنقذتني المنحة الدراسية.

---

[4] إبراهيم نصر الله، عو: الجنرال لا ينسى كلابه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990.

وأنتَ حين تسافر، تملأ طريقك بالهروب.

كان المساء يتكئ على أجفان سبتمبر، وأنا في صالة المطار، ليس لي في نهر الوقت ما أشتهيه. أدس في حقيبتي كتبي المفضلة، ودعاء أمي، ورائحة الصباح في الشوارع، ودمعة في منديل أيامي مَشطت لي طَريق الرحيل.

في عيون المودعين كلامٌ مستتر، لكنه جارح، وضحكاتهم وشمٌ في الهواء، شأن أي طمأنينة خادعة. تطن في أجوافهم دبابير وهم يقولون لك: سافر ولا تعد أبدًا. بل خُذنا إلى عالمك الجديد إن استطعت إلى ذلك سبيلاً.

حتى صديقي يوسف، المعتل بالذكريات، ردد على مسامعي نصيحة من هذا القبيل، ونحن نتناول قهوة رديئة في كافتيريا المطار. قال لي وسيجارة تضيء في فمه: "حين تسدُ غطاء البالوعة بإحكام، لا معنى في أن تفتحها مجددًا؛ كيلا تتسرب منها الحشرات والهوام".

نتعانق مثل ظلين فرا من الضوء.

بعد عام، كنتُ على المقهى حين لمحتُ اسمه في صفحة الوفيات من الجريدة الرسمية التي لم يكن يطيق أكاذيبها الصباحية. تسمرتُ في مكاني وفغرتُ فمي للحظات، وسط بعض مُدخني الشيشة القليلين الذين جلسوا يتأملون المَشهد بحِكمة ورثوها عن الأجداد. بكيتُ يومها بحرقة صنّارةٍ تهوي في قعر بِركة الماضي.

هكذا يتراكمُ الموتُ في طريق البُكاء.

أيها الصديق الكريم: فوق أي جبل تسكن الآن؟ هل تراقب ما يحدث لنا؟!

يغبطني معارفي على منفاي الاختياري، ويقولون لي بأصواتٍ ملؤها الخفة إنني محظوظ. يتخيلون أنني كل صباح أطالع آخر الأخبار على الآيباد، وأمضغ خبزي المحمص والمطلي بالزبدة الطازجة ومربى الكرز، وخارج نافذتي لا شيء سوى امتداد درجات الخضرة الطبيعية وتغريدات العصافير.

يفسرون العالم وفق هواهم، لكنهم لم يعيشوا هنا ليعرفوا أنه حتى الأصدقاء يتقنون الخذلان في الغربة، خاصة أولئك الذين عملتُ على تقديمهم على حساب نفسي، قبل أن أكتشف أنهم يتبعون كل الطرق لخساراتي. لم يجرب من يغبطونني محنة انهيار طبقات القلب في بلادٍ غريبة وجوه أهلها تشبه الليمون الضامر.

كل إنسان هنا يقفز على ظله، علّه يخترق حُجُبَ الْوَقْتِ.

الغربة تقويمٌ أعرج، والغريب شفقٌ يشيخ.

وأنا صياد الماء، شبكتي ممزقة والنهر آسن. أجاهد حتى أجهد، وأصمد حتى يتدحرجُ الغروبُ إلى هاويته.

ربما يكون لديّ هنا سرير مريح، يحتمل الكوابيس والتقلبات الليلية؛ وثياب أنيقة معلقة في الخزانة تنتظر أن أرتديها في مناسبةٍ ما، لكنني أفتقد نكهة الشوارع المحاذية لمنزلي القديم في بلدتي.

الحنين لا ينــــام.

أحِن إلى الأمّ التي تطوي مُدَها بعد أن شبع الرضيع؛ الأب الذي أنهك العناد ذاكرته لكنه يعلّم ابنه سيرة القمحِ؛ الطفلة التي تحتضُن دميتها وكأنها العالم؛ الحبيبة التي تلوح القناديل من كُم قميصها كأنها أجنحة المساء؛ الصديق الذي ذهب بعد سفري إلى السوق ليشتري وسائد للذكريات؛ الجدة التي روحها غبارٌ يرقد بسلام على إطار صورة زوجها الراحل؛ عمال التراحيل الذين يترقبون الفرص السانحة وهم يجلسون القرفصاء على طرف رصيفٍ بارد كعظامهم.

أشتاق إلى فنجان الظهيرة على مقهى شعبي يلعب النرد على وجودنا؛ رائحة النعناع في بيت جدي؛ سور الكورنيش الذي تصطف بجواره الكراسي كي يستريح نهر النيل ليلاً من عناء رحلته الطويلة؛ حنان الليل في أفئدة عشاق ممتنين للظلام؛ النعاس في مركز ثقافي يرتجلون فيه المواويل والمكائد؛ سقف غرفتي حين أغمض عين المصباح كي أستريح.

تتداعى التفاصيل المسكونة بالوطن؛ الصور التي التقطتها سرًا لجارتنا اللعوب؛ القبلات النهمة التي تبادلتها مع نادلة ضامرة الصدر في وسط البلد؛ اشتهائي فخذيّ أرملة أثناء تأدية واجب العزاء؛ قميص نوم حبيبتي الذي رأيتُني أدخله ذات حلم وأنا أحبس أنفاسي؛ الأصدقاء الذين ائتمنوني على أسرار زوجاتهم.

أحلم، وأحصي كل الذي يُمليه عليّ خيالي؛ لو كانت قدماي راسختين فوق أرض خصبةٍ لما احتجتُ لتجميل واقعي بالحلم والحنين.

هناك يدٌ مجهولة تشد القلب من أطرافه إلى منطقة ما، بين الحنين والتمني، وأنا عاجزٌ عن التصرف، أو ربما لا أريد المقاومة.

هنا، كلُّ شيءٍ مائلٌ، حتى المعاني والأغاني.

الطبيعة خلابة، لكن النوافذ أصابها العشى، والشوارع نظيفة والمباني لامعة، لكن الأرواح ضريرة. بط النهر في صياحه في البحيرة، لا يُخفي أنين الجالسين على ضفافها. أما القمر فهو على شكل صرّافٍ آلي أو كرة سقف ملونة في ملهى ليلي.

في الصباح، أرفع عن صدري حَجر النعاس، وأنشر صفحة النهار بالكد والعمل، قبل أن يطويني الليل بمسدس كاتم للصوت، يُفرغ في رأسي رصاصة الرحمة. في آخر اليوم، أخرج مهموماً من المصعد إلى غرفة في آخر الرواق، أصارع القفل، حتى ينبهني رقم الباب إلى الخطأ.

أغسل بَحة صوتيَ المُتعبة بعد نهار عملٍ طويل، وأحاول أن أعتق نفسي من دائرة الحياة المحكمة.

من محطة إلى أخرى، أكتشف أن قنوات التليفزيون هنا ترفض نقل صور الجثث والأشلاء في حروبنا الأهلية والطائفية والاضطرارية؛ لأن جثث نسائنا وأطفالنا تخدش أيامهم.

صور تليفزيونية معقمة، حيث لا نواح ولا بكاء.

يصيبني الضجر، كأني على أهبة انهيار أخير. كم أود لو أني أفك قيود السقف لأمنحه ونفسي بعض الحرية!

داخلي ضجيج مدينةٍ، لا يسكنها أحد.

أعلّقُ على المشجب الخشبي الملابس والتّعبَ؛ لأتخفّفَ من الأحزان في الليل الذي نسي نفسه.

أنفضُ الغُرباءَ عن صدري، وأطفو.

تغيرتُ في المنفى كثيرًا.

كنتُ إذا امتلأتُ بفكرة مضيتُ أتكلم عنها لا أكف؛ الآن صمتي هو الكلام.

أكلتْ المسافةُ مضغة من القلب وقطعتين من الروح النازفة.

على امتداد خارطة المدن، تعلمتُ أن الزمن والخديعة قادران على كل شيء. في الأسفار فوائد، لكن عواقبها وخيمة إن انزلقتَ إلى الدوائر الخطأ في الأوقات الصحيحة، ثم عدوت إلى الدوائر الصحيحة، في الأوقات الضائعة.

لقد ألقيتُ جزءًا من ذاتي إلى الخارج، فمرضتُ بالتعلق السريع بهذا الخارج الغامض الذي يخضعك لتدريبات مكثفة على الابتسامات المصطنعة والطمأنينة الزائفة.

مع ذلك، بقيتُ مؤمنـــًا بأن الإنسان قادرٌ على هزيمة الغربة بممارسة الصدق. ليس في الصدق مهانة؛ الصدق كله كبرياء.

في تلك التجربة، يتبرأ الزمنُ من الكائن على حسابي، فلا يبقى مني سوى بوّابة من عتب.

لم أتزوج؛ لا أريد أن أتزوج من فتاة لن تعرفني حقـــًا. أتمنى امرأةً تنْضُو عَنْ روحي أَثْرِبَةَ الغِيابِ.

عرفتُ هنا عربـــًا تزوجوا من غربيات. أثق في أن العشق ليس ضابط شرطة أو معبرًا حدوديـــًا، ولا يسأل عن جوازات السفر، لكنني لاحظتُ أن الحاجز بين الطرفين يظل قائمـــًا، وربما ترتفع أسواره بمرور الوقت.

في الزيجات العابرة للقارات والأعراق، خاصة بين العرب والمجتمعات الغربية، يحدث شيء ما غامض. تنفتح هاوية سحيقة، ويظل الزوجان في حالة ردم لهذه الهوة، وسط خوف أحدهما على الأقل بسبب هذه المسافة الشاسعة التي تفصل بين هذين العالمين. لا بدَّ أن العلاقة الحميمة بين هؤلاء لها مذاق كعك المقابر؛ مضغ آلي، وريبة في المكونات، واستدعاء لمشهد الموتى الذين منحوك بطريقة أو بأخرى هذا الطعم المرتبك. وإن كان هناك أبناء من مثل هذه الزيجات، فإنهم يركلون كرة الجحيم كل صباح؛ تراهم ينظرون للأب والأم في حيرة وشرود، كأنهم عالقون على حبل المسافة الفاصلة بين هذين العالمين؛ حبلِ النقائص والنقائضِ.

أشتهي النَخْلَة المَرْيَمِيّة، التي رشتْ عطرها على جبين حكاياتي، حتى صارت فتنة الليلك في دمي. برجها انطوائي، لكن صدرها ليس كذلك.

يا لصدرها العامر مثل حدائق بابل المعلقة!

هي كما قال أبو نواس:

كأنّهـــا من حُسْـــنِها دُرَّة   بارِزَة من كَـــفِّ دَهْـــقـــانِ

أو مِسْكَة خالطها عَنْبَرٌ   واستُودعَتْ طاقَةَ رِيْحانِ

كم حفظتْ الطرق رنة صوتينا، وإشارات أيدينا في الحديث، وشكل خطواتنا ومعنى صمتنا الذي يغشى المكان.

وفي العشق، لا يصير السكون سكونـــًا.

عانقتُها كثيرًا وطويلاً، وكلما لمستها، التصقتْ شرائط بلوزتها الفضفاضة بنهديها، وانفتحت صناديق من عاج، تتناثر منها جواهر ولآلئ.

تسيل منها الوداعة وهي تقول لي: أحِبُّ ذقنك الكثيف، وعنقك الشاهق.. وأحِبُّ مفاصل أصابعك حين تغازل ضفائري.

قلتُ لها ذات مساء:

"وجودي معكِ الآن وغدًا؛ لأنكِ وجودي نفسه.

أعرف أني حين أفكر في الكتابة عنكِ، أفكر في المستحيل، لكنني أجترح في غرامكِ بعض المعجزات.

أريد أن أكتب لكِ وعنكِ أشياء لم أكتبها من قبل؛ لتكون تلك الكلمات هي أحلى قبلة مكتوبة في التاريخ.

وحين أقبلكِ، وأعزف على قيثارة زهركِ، سأنسى خامة الليل، وباب القصة!

عندما نصبح معـــاً، سأقطفُ لكِ نجمة من السماء، وأثبتُها في ثوبكِ المُرَصَّع بِانْثيالاتِكِ اللازُورديَّة.

سأُجلسكِ على حِجري العاري؛ لتشعري بأعمدة النار في جسدي. وسيكون قميص نومكِ أول من يعلن استسلامه في معاركنا الجميلة".

نكتب عن الحُبِّ، وفي نهاية الأمر سينتهي العالم بسبب الكراهية!

حين قررتُ السفر، أخفيتُ عنها رُضُوضَ الْوَدَاعِ، وقلتُ لها وأنا أكفكف دموعها: "أتخيلكِ وأنتِ تناجين صورتي قائلة: ولو انتصرت في البعاد؛ أنت من بعدي مهزوم"!

أخذت تُغالب الضحك بيديها المثبتتين على فمها، وهي تبكي؛ تذرف دموعها وهي منفرجة الشفتين من الضحك. هل يمكن لأحدٍ تخيل هذا المشهد؟

كانت آخر كلماتها لي قبل السفر هي "لا تتأخر في البعاد. كلما غبتَ، توغلّت امرأتك في الشيخوخةِ أكثر"!

المسافات لا تثني القلوب عن الوصول.

"كيف حالكِ؟" أسألها في المكالمات القصيرة المتعجلة بيننا، تلك الأحاديث الساذجة التي أختلس دقائقها وسط انشغالي الذي لا ينتهي. تجيبني عادة بكلمة أو كلمتين، ثم تسألني عن أخباري وكيف كان يومي. أخشى دائمــًا أن أقول لها الحقيقة: لستُ أذكر!

أبعث لها نُــذور الشّوق في رسائل تزقزق في بريدها الإلكتروني. في إحدى رسائلها، كتبتْ لي ممازحة: "تدفأ جيدًا يا حبيبي، فالشتاء في مدينتك غادرٌ ومخاتل.. ارتدِ من النساء ما شئت تحت ثوبك.. سأغُض عنهن الطرف، فهن لسن أكثر من وسائل تدفئة. افعل ما شئت، فكلهن جُزُرٌ مؤقتة، والجُزُرُ لا تلغِي البحر".

يا للماكرة!

تلكزني حروف الرسالة برؤوسها المسننة، لكنها كانت في غيابي حائرة ومستسلمة، كسمكةٍ لم تتخيّر موقعــًا مناسبــًا من المُحيط؛ هكذا باغتها الصيّاد.

حدّثتني في زيارتي الأخيرة، ونظراتُها تفر إلى النافذة، عن زوج بليد عصبي، مفرغ مثل منطاد، يعرف جيدًا أبعاد وضاعته. عندما

جمعهما سقف بيتٍ واحد، اكتشفتْ عنفه حين يُفترض به أن يرق ويلين. وفي كل مرة يقع عليها مثل رخامِ الغباء، كانت آنية الزهور تخرج بمزيد من الكسور.

تقول: كان مرآتي المخدوشة المتسخة، وكنتُ الساحة التي يتقيأ فيها كل تفاهاته.

ابتسمتُ ببلاهة حين أخبرتني عن طفلها القادم. أعلم أنها متزوجة، لكنني لم أرغب يومــًا في سماع اعترافٍ بطريقة مبتذلة؛ الطفل، إقرارٌ بالعلاقة الحميمة بينهما.

تثرثر كثيرًا، مع بعض البكاء المُبتذل، لكنها لا تنصت.

تلومني غاضبة: "أنتَ من ضَيّعَ الضَوْء. ها أنت تصل متأخرًا كالندم. كم أود أن أفرغ وسائد الريش من الغنج والدلال الذي كنتُ أدخره لك"!

عتابها ألقى في قاع ذاتي حَجرًا ثقيلاً، وأيقظ شياطين فتحتْ أفواهها بسؤال واحد استفزازي: هل أحببتها حقــًا؟

ينتهي الحُبُّ تمامــًا مثلما تفرّغ زجاجة مياه معدنية في مغسلة دورة المياه. كل ما فيها من لمعان وشفافية وبهجة البلور، يتحول إلى دوائر ودوامات تبتلعها شقوقٌ معتمة.

كم تخون الزغاريد قامة العاشق!

يا صاحبي، ثمة حريق لا ينتهي، وها أنا أقبض على ضماد روحي، وأصمت.

لا يُجدي الآن التشبث بالأغصان.

ربما يتعين عليّ تجديد أثاث القلب. هذه المرة سأحاول أن آخذ عن جدي مهنة النجارة، وأصنعه بنفسي!

كم نثرثر كثيرًا في أمور غير لائقة من تلك المنافي التي لم تعد بالنسبة لنا ممحاة ملائمة!

أما وقد شارفت جروحنا على الشفاء، فإن الذكرى تزيدنا مناعة أو تقلل من تعاستنا.

ملاحظة ختامية: هل تريد شيئـــًا من هنا؟ أنا عائدٌ إليكم قريبـــًا بحقيبةٍ ممتلئةٍ بالأسطوانات المدمجة وخيبات الأمل، وبعض الثياب التي تتشاجر في غيابي.

يـا خـال!

"ويلٌ لمن لا يعرف أية طريق يسلكها، البحر أم البريّة، ويلٌ لمن يرجع إلى البيت ويجد أمامه أرضه قد جُزّئت، في هذه الساعات الواهنة التي لا يمكن تصورها، يكون حكم الزمن نفسه لا نهاية له، يسقط على المخاوف، والثقة المتزعزعة... ويلٌ لي، ويلٌ لمن يبقى وحيدًا مع أشباحه"[5]

هذا الإيقاع الجليّ والمتعدد، هذا التوقّد، له رائحة الفصول وأثرُ شمسٍ نزقة.

اسمه: صلاح.

عيناه فجران غائمان، يرشان الآخرين بلهيبٍ صامت. وجهه المنحوت مثل تمثال فرعوني، يمنحك انطباعـاً واضحـاً عن ملامحه؛ إنه لا يبتسم لكنك تشعر بالابتسامة آتية.

ضحكتُه جَرَحها التبغ، ونظرته تراوغ الكون.

---

[5] بابلو نيرودا، الزيل وأمله، ترجمة: نامق كامل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981.

رجلٌ ينبجس كالمياه، ويغرس رمحه في خاصرة الثور بخفةٍ تنتزع آهاتِ الإعجاب.

يحتفظ في جيبه بحصاةٍ مشرَّبةٍ بطبقات بنية، على سبيل التفاؤل وجلب الحظ.

يعشق تربية الحمام في "غيّة" فوق سطح منزلهم القديم. يصعد إليه عصر كل يوم ليطلق سراحه، ويستمتع بمشهده الفريد وهو يفرد جناحيه في الهواء ويضفي حركاتٍ أنيقة على لوحة الفضاء.

كان ناحلاً وطويلاً؛ في عينيه دائمـــاً سؤالٌ نافد الصبر؛ وكأي معجبٍ بحياة القلقين الساخطين، ما إن يتجاوز ضجره الحدودَ حتى يفقد صوابَه إذا لم يتدخّل أحد.

يقول: رُميتُ، ذات يومٍ، في المحيط، كتقدمةٍ للعدم، لكنني عُدتُ. ضعتُ، مذ خرجت. الطريق الصخرية التي توصلني إلى البيتِ دبرتْ لي مكيدة أو غواية، فاستسلمتُ لها سريعــاً.. وفي الحال كان قد فات أوان الرجوع. طرقتُ باب منزل السحرة ولم يرمش لي طرف.. لكنني ضعت!

كل المعاطف التي يرتديها قلبه لا تُخفي ثقوبه الواسعة، ولا تحفظ أسراره من التطاير.

وقعَ في غرام امرأة تجتاحُ ثوبَها ريحٌ مرحةٌ، وخطبَ ود ثانيةٍ تجاوز أسوارها بالحيلة حتى لا يخسر قائد جُندِه أمام باب قلعتها،

ثم تزوج نجمة لألآءة تدور في فلك بائس. كانت همس له: مقبض باب غرفتي يشعر بالبرد، مرر دفء أصابعك عليه.

كلما استغاثتْ به غيمة بيضاء أنقذها من سمائها الرحبة، واعتصرها في نخيل يديه بلطفٍ وابتسامةٍ تبدد الخوف. ومن دفء الفم إلى برودة الأرض، حيث حرارة جبال الجسد واللازورد.

عاش شبابه مقيدًا بشراكِ ضفائر حبيبةٍ ما.

وحين أُغرم بامرأةٍ تُقَاسِمُه خرافتَها وتستهلك بجشعٍ حضوره، جاءه صوتُ والده على الهاتف عميقـًا وهادئـًا: تعقل يا صلاح!

في المساءاتِ الوادعة، يعدل ياقة قميصه المزركش الذي عضه مشجب رديء، وتكشف أزراره المفتوحة عن شعيراتٍ هاربة وبعض الجلد الداكن.

ينتعلٍ حذاءً نظيفـًا لماعـًا، ليغوص في أكثر نقاط المدينة ازدحامـًا.

كل الدروب والشوارع الجانبية تعرف نشيده، وتحفظ ذاكرة خطاه. ينعتونه بالمجنون، لا لشيء إلا لأنه يحمل وردة ويحدثها علانية، وهو ينهرُ الزحامَ.

يمتلك دراجة بخارية وجرحـًا في الركبة؛ يركض فوق رمح الوقت، وهو شاردٌ كالمساء، حتى يخطئه الشّارع الطّويلُ الذي تعب من ذهابه وِإيابه.

قد تصادفه مع فتاةٍ تبدو خائـــفة كأنما باغتها شعور الحيض الأوّل، وهو يعبث بها عبث القطط بحاويةٍ في شارع منسيّ.

وقرب الفجر، يستسلم للتعب، فيما تؤوب دراجته النّارية إلى الأفق.

كم تعجز الريح المشاغبة عن فصل الموج عن البحر!

في البال رسائله الأنيقة بخطه المنمق ولغته الجميلة التي لا تدري من أين اكتسبها، لكنها تُعبّئُ صدرك بالأمل. "الخطُّ السيّء قذىً في العين"، قالت العرب القدماء. حرف الألف عنده ساق نبتةٍ تطاول الغيوم، والميم زهرة ليلك تختصر العالم، والهاء فوقعة حلزون قرب شاطئ منسيّ؛ والنون تنورٌ يغلي من الشبق، والسين مشبك شعر تخصص في الغواية، والجيم حرفٌ يمتد للأسفل في قوسٍ واسعٍ كأنه رأس صنّارة.

تعلمتُ منه حُبَّ السينما: عبقرية فيديريكو فيلليني في "لا دولتشي فيتا" وستانلي كوبريك في "سبارتاكوس" وألفريد هيتشكوك في "سايكو". عشقتُ اندفاع أنطوني كوين، وبرود أعصاب كلينت إيستوود، ونعومة كاثرين دونوف، وسطوة آن بانكروفت.

مع كل فيلم جديد، كنا نجلس متجاورين في صالة العرض، نقفز خارج أنفسنا، مفعمين بالدهشة واليقين. وفي فضاء مخيلته، كنتَ تلمح نهاياتٍ أخرى لأفلام تستقر في الوجدان.

في البال، أفلام "الأرض" و"شباب امرأة" و"بداية ونهاية" و"درب المهابيل"، التي شاهدناها معـــاً في سينما "شبرا بالاس" التي تحولت إلى محال تجارية بطعم العدم، وفي سينما "نادية" بالنعام، قبل أن تتحول إلى مخزن لشركة منتهية الصلاحية. نعاود أحيانـــاً مشاهدة الأفلام التي أحببناها، في اكتشافٍ جديد لعروق الذهب في المنجم.

شفتاه السميكتان على وجنتيه البريئتين جعلتا منه أشبه بأحد نجوم أدوار الشر في هوليوود. يسدُ ثغرة الهشاشة، بسخرية مغلفة وقسوة مزيفة، لكنه يلين عند منتصف الحكاية، تمامـــاً مثل دربٍ تمحوه خطوات العابرين.

ذهبَ إلى حرب غير عادلة، حدَّثني قبلها عن أمله في إحراق خطى الغزاة، ولما عاد قال لي في مرارةٍ: لا بدّ أن الغريب الذي يشرب من دمائنا، قد ثمل!

تركت الحرب في ذاكرته ذات الأثر الذي يتركه جنزير الدبابة في بستان من الورد.

يكشف لك عن ظهره الذي يشبه جدارًا متهتكـــاً امتلأ بثقوب غائرة من أثر الرصاص والشظايا، وهو يُحدِّثك عن معنى العالم المصبوغ بالهاوية، وكيف تتحول مقاتلاتُ العدو إلى حفارِ قبورٍ يدفن بوحشيةٍ غادرة أحلامَ الحرية والكرامة. يقول: في الأرض القاحلة الصفراء، أكلت الشمس الحارقة وجوهنا،

وشقّقتْ أقدامنا رياحُ الظهيرةِ، واجتاحنا العطش إلى نهرٍ في مثل صفاء الزجاج.. غير أنه كان بعيدًا.

يشبُ صغار العائلة فوق الرؤوس المتحلقة حول رأسه المعفّر، وهو يقص حكاياتٍ كأنه راوٍ لأساطير جديدة. يحكي متحسسـًا جرحه ومنكسـًا رأسه عن الذين رافقوه في دروب الليل، وحمّلوه رسائل لصغارهم، قبل أن يجدهم أشلاء في الصباح.

يقول: سرنا وسط الهواء المختنق من رائحة البارود والموتى، على رمال طهّرها دم الضحايا، ولوّثتها أحذية الأعداء، وغطت وجهها الأبيض دانات متفجرة، وقطع قماش غارقة في دم لم تخثره الشمس الملتهبة. سرنا حفاة، لا نرتدي إلا أحذية الشك، في النهار يلطمنا الرمل، وفي الليل تكوينا الريح. وكلما تصاعدتْ ضربات الأقدام اللاهثة الفزعة، كان الدم يقترب. سرنا على غير هدى فوق الرمال الموجوعة بحثـًا عن جسدٍ مزقته نيران مسعورة، ووطنٍ مات من هول الخيانة، وبعد ليال من التيه عُدنا حاملين معنا كل هذا الأسى.

لا شيء أبشع من حقيقةٍ أُخفيت.

لم تكن الحياة وقتها إلا جُرحـًا ملوثـًا وثغرة لم تندمل.

وكأي عابر صامتٍ كساه الغبارُ، قرر ألا يصبح حارس السهل، بل السهل نفسه. علّق ثوب أحلامه على مشجب

الرتابة فوق بيدر الحياة، ومضى يسد رمق صغارٍ استظلوا بسقفه الصغير.

بدا لي أغنية قصيرة؛ مشروع رِّيح لا تتمسك بالهبوب.

أحاله البرق الغاضب إلى بيرق للأسى.

أخرّج من دماغه حكاياتٍ مفككة ومبتسرة، وصاحبَ البُكم بحثـًا عن الأسرار. رمي ذكرياته على أقرب رصيف لا يزوره عامل نظافة.

باتت هرجة المدينة الباطلة مجرد لوحةٍ مظلمة لهذا الذي طالت فترات صمته، وتركَ لسيجارته مهمة تأمل ملامح الغرباء حوله.

صار سيره أقرب إلى جنازة عابرة في سرب سيارات سوداء بلا ضجيج، وهو الذي كان يخترق شوارع طويلة، بكل ألم الأقدام عند السائرين طويلاً؛ لاصطياد ابتسامة عابرة. وفي الليل، يكاد ينام واقفـًا مِثل الفَزاعة حتى يخيف الكوابيس.

لا تدري هل مسّه الجرح، أم هده رماد السنين!

سقط كتفاه مثل الدموعِ، وانحنى ظله على ظله، وصار بجلده المشدود فوق عظام بارزة كأنه مزقةٌ من شراع. ينهار ويتفكك أمام أنظار أحبتهِ، كأحجار عتيقة تهجر جبلاً.

سيؤلمه صدره، ويمتلئ جفناه بقيح كثير، فيما فمه المحترق يبتلع دوائر الهواء في شراهة.

كل القناديل اختفت، لكنه ظل يطارد أحلامه بعينين مرمَّدتين.

يئن قائلاً لتشوهاته القاسية: "يا عجلة لا تسحقيني"!

نقلوه إلى المستشفى على عجل، وفحصه الطبيب بتمهل، قبل أن يهز رأسه ويوصي باحتجازه في غرفةٍ بلون محايد.

ما إن تأكد له بأنّ صوته لن يُسمَع في هذه الحجرة النائية، حتّى أخذ يصرخ لساعاتٍ مسكّنـــاً الألم الذي ضمَّده قطنٌ خانق. كان صراخُه الخيط الأول في بياض الكفن.

على أرض الواقع، اليأس قادرٌ على سحْقِ رأسِ الأمل.

في آخر مرة رأيته، كان ينتظر نهاية المطر، ويقف كأنه جبلٌ متشبِّث بالأرض، في اليوم الأخير من أجندة الكون. بالرغم من القوّة الخارقة التي استمدها من الحُمّى، فإن أنينه المكتوم بدا مثل معزوفة ناي تحت الأرض.

أشار إليّ بالاقتراب، ثم أخرج من جيبه حصاته الأثيرة ووضعها في كفي، وابتسم في وداعة. سأحتفظ بها مع رسائله الجميلة التي لا تزال تسعل، وتبصق دمـــاً.

تنشر العينُ لؤلؤة تحلم بأبديةٍ هادئة. يغلق عينيه ويطفئ ضوءه.

صرخة، ثم لا شيء.

يدلف بوابة الغيب، ويصعد مع الماضي الذي أسس للوجع.
يصعد، ويصعد، ويصعد مثل الآمال التي تذهب عاليـــاً..
ونحن نهبط بالجسد المسجى في الكفن الجليل إلى ظلمة القبر.

دمعة حبر

هذه الرسالة التي بلا اسم ولا عنوان، وُجِدتْ مطوية بعناية في مجلةٍ كانت تنام على طاولة صغيرة في منزل ضيافة، ذات يوم من شهر نوفمبر عام 2007.

كنت أتساءلُ دومــًا كيف تُراها الغربة؟ وهل لها بالفعل طَعمٌ مُــــرٌّ؟ وهل يشعرُ الإنسان بالغربة في حوض السمك الذي يمتدُ من المحيط إلى الخليج؟

وجاءت التجربةُ على طبق من ذهب، فحزمنا أمتعتنا وبعنا منها ما بعنا، وارتحلنا إلى دبي: مدينة تجرحُكَ بغرورها وتمص دمك وهي تبتسم.

كان الشعور الأسوأ في حياتي ونحن على متن الطائرة. فما أسوأها من مشاعر عندما تعلمُ أنك لن تعودَ إلى الجدران التي ضمتك في سنواتِ طفولتك ومراهقتك، وكانتْ شاهدًا على أفراحك وأتراحك، وآمالك وآلامك!

أصابتني غصة وأنا أودعُ ذكرياتِ الصبا التي جعلتنا نحلقُ بأجنحةٍ من رأفةٍ وجمال. اكتشفتُ أنني مريضة بأشيائي التي

تراكمتْ على مر الزمن. شعرتُ بأنني أخونها كلها إذ أجمع أشيائي المبعثرة التائهة على رفوف خزانتي؛ لأبيعها، وأعطيها ظهري كأنها لم تكن يومـــًا. أواسي نفسي بأن تلك الأشياء لم تكن تصلح لمرافقتي في رحلتي المقبلة؛ لأنها ستثقل حقائب سفري أكثر فأكثر، علمـــًا بأن الرحيل ثقيلٌ بحد ذاته والوداع لا يُحِبُّ التذكر بالأشياء، لأنه يمضي إلى النسيان.

انتابني شعور بالغربة في اللحظة التي تركتُ فيها شقتي وسلمتُ مفاتيحها إلى مالكها الأصلي. في تلك اللحظة تحديدًا، شعرتُ أنني فقدت الأمان والسكينة.

من قال إن المنازل المستأجرة لا تستحيل أوطانـــًا صغيرة؟!

كم سأفتقدُ رفوفَ الكُتب، وقطعَ الأثاث، وطاولة الزينة، وصورتنا التي تضحكُ في الإطار، وإبريقَ الشاي الذي تغيرٌ لونه، والثلاجة التي نُثبّتُ عليها كلماتِ الحُبِّ بمغناطيس، والشرفة المطلة على أحلامنا، ومقبضَ البابَ الذي يلوي ذراعنا، والدرجَ الذي كاد يُهلكُ أقدامنا، والفراشاتِ التي صبَّرتها في مفكرتي الخاصة.

سأفتقدُ العمة التي تملكُ أسرار وصفات الأطعمة الموروثة أو المبتكرة التي كانت تولد من يدها، والأصدقاء الذين يتبادلون الشكوى من الطقس، ومن تأخر الحافلات؛ والجارات اللاتي يثرثرن وهن يرتشفن القهوة من فناجين عليها بصمات أحمر

الشفاه؛ والأطفال الذين يضعون أيديهم في جيوبهم اتقاء البرد، فيما تنوء ظهورُهم بالحقائب المدرسية.

في مياه الذاكرة الكثيرُ من الضباب.

نراهنُ على النسيان، ذلك الرصيف الشاغر للمُتعَبين والتائهين، فنخسر الرهان.

ها هي صخرةُ الغربة ماثلة أمامنا، نطلُ عليها من النوافذ الصغيرة للطائرة التي أقلتنا إلى المدينة الجديدة التي يتصاعدُ منها بخارُ الحداثة. تشطر الطائرة زرقة السماء بخيط دخان سرعان ما يتبدد، كأن لم تعبر.

في المطار، اكتشفنا أن ماضينا بدأ رحلةَ الإفلاتِ من قبضتنا.

من الوهلة الأولى، واجه عقلي الحقيقة، وكأنها خارجة من شق في الجليد: أصبحنا غرباء!

كنا نخطو في المطار الفسيح الأرجاء، تسطو إحدى قدماي على خطى الأخرى، في أرض لا تُميز خطوتي من سواها، وأتساءلُ: من يحرّرُ الساقين من إسمنت المكان؟

وكأي غريب يسيل من أحداقه الوطن، حملتُ ابني الذي اجتمعَ فوق ذراعيَّ مضغةً، واتجهت به إلى المجهول. لم أكن أعلمُ أن هاني سيشعرُ هو الآخر بمرارة الغربة ويعاني أكثر منا نحن الكبار.

كان التأقلمُ صعبـــاً، فكل الأشياء هنا خارقة.. وتافهة.

تلك الحياة الجديدة التي اخترناها بملء إرادتنا، تفرضُ علينا اتخاذَ شكلِ المثلث الذي يسندُ كلُ ضلع منه الآخر كيلا ينهار ويتفكك.

مرت ليال طويلة وثقيلة كانت دموعي فيها تسابقُ بعضها البعض، وكنت أغفو أحيانـــاً من شدة التعب.

حياتي هنا أوراقٌ مبعثرة تُملأُ بها كل الفراغات التي تتأبَطُ العُمر. كأنني ورقة مكورّة بقسوة وملقاة في سلة مهملات الكون.

يا الله، متى سيأتي اليومُ الذي أنعمُ فيه بالراحة؟

لا أدري، هل ما أنا فيه هشاشة في الإرادة أو رهافة حس، لكنني حزينة بكل ما تعنيه تلك الكلمة.

كلُ الاختياراتِ قاسية.

هنا أتجرعُ الألم وحدي، وأعدُ ضجري على أسناني.

زوجي يذهبُ إلى العمل منذ الصباح الباكر، ولا يعودُ حتى يهبطَ الظلام. في ساعات النهار، يمرُّ الصبحُ مهزومـــاً حسيرَ الرأس. كانت دقاتُ ساعة الحائط تخترق الوقت، والغرف، ولا يُسّري عني إلا صوتُ فيروز الذي يعانق الملائكة، ويقودني إلى دروب التأمل الصوفيّ.

أرتجلُ الوجودَ كمشهدٍ صعب.

ثَمَّة عَتمَةٌ ترفُضُ أن تترُكني، كليلٍ يجيد النحيب.

أفتحُ النوافذ، لعلَّ الشمس تزيلُ الرطوبة المحتقنة في الغرف، وأطالعُ في الشرفة بنفسجة تذوي قبل أن تتلاشى في السماء الزرقاء. أطرُد طيورَ الأسى من الشرفة، قبل أن أغلقَ النوافذ على دموعي وأسدلَ عليها ستائر النسيان، احتماءً من سماء تُمطرُ رملاً، وهواء مخلخل بضرباتِ مطارق عمال البناء.

الشمسُ ترحلُ بين النوافذ في ساعات النهار، وقلبي يمتلئ بزبد حامض يزيد من صعوبة التنفس. في بيوتنا جميعــاً، نوافذ غير قابلة للفتح ومرايا لا تخبرك عن أي شيء؛ مكيدة أخرى من الحيطان العالية والأسقف المحايدة والملامح الغائبة.

لا أستعيدُ ضياءَ الأيام، ويهربُ ملمسُ الأشياء من بين الأصابع.

هنا، لا أصدقاء يمنحونك فراء الألفة، ولا أحبة تهديهم وشاح الدفء.

هنا، نغلقُ النافذة على ألف انتظار، فلا غيمة تعبرُ الطريق، ولا ابتسامة تربتُ على كتفك.

هنا، القبورُ وحدَها هي الحقيقة.

أحاولُ أن أصنعَ قبورًا لآلامي الصغيرة، وأخفي برودَتها برخام آسر.

كنتُ مثل غزالة تعثرتْ قوائمها في مفهوم الفريسة، فمسّها الرعب.

المارة الذين يصاعدُ من أكفهم ملحٌ ويباغتُ ظلهم الأرضَ، تنمُ وجوهُهم الباردة، وعيونُهم الجامدة، وخطاهُم المتسارعة، عن عابرين لا يبالون بشيء، ولا شيء يبالي بهم.

أحصي الدقائقَ الزاحفة ببطء، وأنا أحسُ بمخلب الذعر وتشتدّ بي غاراتُ الخوف، في منازلَ فقدَ سكانُها الطمأنينة.

أكتشفُ أن جارنا لديه ثلاث بناتٍ رائعات، لكنهم ينادونه: أبا أحمد!

أرقبُ نملة سوداء مدججة بأحمال تذرعُ المترل، وأتخلّصُ من العلكة التي كانت تُضجرني، وأتثاءبُ أمام التلفاز مثل مفردةٍ يابسة، وأمشطُ شعري فيتساقطُ منه حزنٌ يُقلع كسفينةٍ عملاقة.

أحادثَ أمي هاتفيـــاً، وأحاولَ أن أبدو متماسكة. أنا فقط لا أتقنُ البكاء على الهاتف.

كلما اتسعت بيننا فجوة الغربة عبرناها، بالكلام وتبادل الهموم.

أحكي لها عن المترو الأزرق المعقم، ومراكز التسوق التي تشبه المتاهة، لكنني أخفي عنها وخزَ الواقع الذي بعثرني في مهاوٍ وكهوف بعيدة.

تغمرني موجة حنين، أُعلمُ نفسي ببطء أن أتخطاها. أصارع غربة طالت كل مفاصل إنسانيتي، وأحاول بمشاعر ملتبسة أن أزعم لنفسي بأن كل شيء على ما يرام.

ثَمّةَ جدران تتربَّصُ بي، وأنا أجلس مثل أغنيةٍ مُهمَلة.

الوحدة تُضَرِّجُ بابَ شقّتين، فأهربُ من الحنين إلى زوايا الصبر.

يرتدي الحزن جسدي، فأبكي مِثل غمامة أسقطتها الريح مطرًا في لحظةٍ شتوية، لكن لا أحد يكترث ويفتح مظلته. وككل مسلوبةٍ ومخذولةٍ ومنفية، كان ظلي يمشي دون رأس.

ما إن يعود محمود ونضع وجبة العشاء حتى يبدأ هاني في البكاء، فتجدني أسدُ جوعي بلقيمات بسيطة ومتسارعة، ثم أركضُ إلى ابني وأدخلُ حجرته بقلبٍ مزعزع لأضمه إلى صدري، فيهدأ ويكف عن البكاء. طريقتي هذه تعتبرُ فاشلة في نظر زوجي، أما أنا فلا أبالي برأيه في موضوع تنشئة الأطفال؛ لأن الرجلَ عادة يجهلُ كنزَ الحنان الذي تجده المرأة في احتضان طفلها.

أتساءلُ أحيانـــًا، هل يُعقل أن يُحرمَ طفلي الوحيد من كل المحبة التي كانت تحيط بمهده: الجدة الرائعة التي تعشقه، والمربية الحانية التي كانت تتسابقُ معنا على رعايته حتى تعلّق بها. وكان منزل جده الفسيح الذي نزوره في نهاية الأسبوع، يضمُ حديقة غنّاء تفوحُ منها روائحُ أرقّ نفحة من عطر الخزامى.

والآن، لا أحدَ، سواي.. دائمـــاً.

حين يغفو أو يستيقظ، لا يرى سوى ملامح وجهي في هذا البيت الضيق كأنه عُلبة ألوان. جدران غريبة، هي عنوانُ الوحشة، والشاهدُ الصامتُ على ألم الخذلان ومنغصات الذاكرة.

لم يكن أمام صغيري سوى الدموع، كأنه يتساءلُ: أين نحن؟

بكيتُ كثيرًا على بكائه، وجرفتني رغبة لا تقاوم في الصراخ، فقد كان يمزقُ قلبي عندما يحدق فيّ بعينيه اللتين تشبهين كُرتين من العسل، وتملأ نظراته الحيرة والخوف والدهشة: ما الذي أتى بنا إلى هنا؟

لقد وعدني زوجي بأن يُدللني وأن تكون عيناه سربـــاً من الرحمة من حولي، في هذه المدينة المتلألئة بألوان زائفة، ذات الشوارع الغائبة عن الوعي، لكنني ما زلت أنتظرُ تحقيقَ وعده. حين بُحتُ له بمكنون صدري ومدى ضيقي وشعوري بالاغتراب، ثار في وجهي وقالَ لي: "اذهبي إلى منزل أهلكِ كي تنعمي بالراحة والرفاهية"!

اخترقتني العبارة.

سرقتْ كلماتُه لونَ دمي، حتى صار صوتيَ مشروخـــاً كزجاج مكسور، بعد أن أخفقَ الرجلُ الذي تركتُ الدنيا من أجله، في أن يقومَ بزيارة حانية إلى ندوبي.

ما أتعسَ هذا الإحساس!

إن مَلكة الخيبة لديّ تتجاوز كل إدراك، فالإهانة عمادُ أسبابِ الألم. لا شيء يصلح آنية الورد إن أصابها كسر أو شوهها شرخ.

لعلني متورطة في الخطأ من دون أدري؛ فقد التهمَ طفلي معظمَ وقتي واهتمامي، ليتراجعَ طيفُ الزوج إلى الوراء، وأنا التي كان حضنُه ترجمتَها الشخصية لكلمة جنّة.

ربما كانت خطيئتي الوحيدة أنني تألمتُ وحلمتُ وقاسيت.

في مواجهة القسوة، يتقوس الحنان داخلنا مثل كهلٍ مريض لم تسعفه عصاه.

هل سيموتُ حُبُّنا؟ لا.. لا..الحُبُّ لا يموتُ وعيناه مفتوحتان، الحُبُّ لا يُدفنُ في المنافي. غير أنه نجح ببراعة يُحسد عليها في أن يُفقدني حتى الرغبة في العتاب. كم أتوق في لياليّ الطويلة إلى أن تمتد يده في السرير الواسع، فأشعُرُ بأصابعهِ السمراء تُفرِّقُ أصابعي وتشُدُّ على يدي المرتجفة!

زمان، كان يترك لي قبلة على طرف شفتي وأنا نائمة، فأمسحها بظهر كفي وأدسها تحت الوسادة. كان إذا أمسك يدي اهتز قلبي من الفرح، وإذا داعبني في الصباح الباكر، أردتُه لنفسي لا للعمل، فأُحكِم إغلاق الستائر جيدًا وأنزع البطاريات

من الساعة البغيضة. كانت إنحناءاتُ ظَهْره منحوتة لي، ليستقر عليها جسدي بأمان؛ هُنا موضع صدري، وهُنا بَطني، وهنا يَدي، وعلى عموده الفقري ملعبٌ لِقلبي.

والآن، يضيق السرير بما يضمه من روحين متنافرتين.

يسودُ المنزلَ صمتٌ مطبقٌ شبيهٌ بما يعقبُ الكوارثَ الكبرى.

أصحو متكدرة. مزاج النهار تحكمهُ أسرار الليل.

ينال مني الإحباط، ويتسلل الصقيع إلى روحي الهشة، فلا أعود أعبأ بأمور المنزل؛ حتى الأريكة تحولت إلى مقبرة ملابس. وحدَها وسادتي صارتْ مهدَ القلق المنفلت، وأنا أكثر شحوبـاً من شفةٍ على وجه ميت. أشعر بأني زائدة عن حاجة الوجود، كمفتاح لا يفتح أي باب.

وبابي ليس سوى شجرة سيئة الحظ!

في جناحي رصاصة عالقة بين الريش، أحاول عبثـاً اقتلاعها. أطير مثل عصفورة عرجاء، كأن السماء تحتي. أريد أن أربط المستحيل بطرف ثوبي وأجرجره خلفي.. أود أن أتدحرج معه إلى الهاوية.

حدثتني نفسي يومـاً قائلة: البسي له شيئـاً قصيرًا؛ اقتلي الكآبة بالأنوثة!

أغفل رسالتي الناعمة، تاركًا امرأة مستريبة تنهشها احتمالات وظنون. لعله كان مُتعبـاً بعد عناء يوم طويل من العمل. وددتُ

أن أسأله: هل عضلة قلبك مرتخية، لحد تدحرجي منك دون أن تدري؟

لا أريد سوى ذلك الحُبّ الذي تترجمه أفعال المودة والحنان والشوق والاهتمام.

أعرفُ جيدًا أن الحُبَّ كِتَابٌ رائع تحتفِظُ به، أما الرغبة فهي جريدة يوميَّة تُلقيها جانبـــًا بعد أن تفرغ منها، فإذا هي "مُلقاةٌ بإهمالٍ، على قارعةِ القراءة، تنتظرُ مصيرَها المحتوم، وتَتقيه ببضع كلماتٍ"، كما تقول الشاعرة سعدية مفرح في ديوانها "كم نحن وحيدتان يا سوزان".

أنا والوحدة سيفان يتقاتلان في قلب الليل بلا رأفة.

هذه الفوضى داخلي تحتاج لمسة حانية وعناقـــًا دافئـــًا.

سنترك منزلَ الضيافة بعد أسبوعين، والشقة الجديدة التي سننتقل إليها لن تكون أحسن حالاً، فالإيجارات هنا مرتفعة، والشقق أضيقُ من أن توصف.

أفكر أحيانـــًا في الهروب؛ أن أجُرَّ ملامحي في عَربة التّعب، وأترك خلفي ورقة على مرآة مغسلة حمام الضيوف تقول كلماتها: رحلت عنك؛ لأنك رحلتَ قبلها عني.

تُرى، هل هي مجردُ غربة تعتريني؟ ومتى تذوي قوةُ الماضي؟

أعبث أحيانــًا بعلبة إكسسوارات وحُليّ، وعقود اشتريتها من "دبي مول"، ودفاتر يوميات جميلة، وأترنم أحيانــًا بألحان منسيّة، لكني في آخر المساء مجرد امرأةٍ ترتطم بالوحدة.

أين أحلامي الطائرة بأجنحة الرخ؟

بتقطيبة حزن، أطوي أيامــًا مليئة بانكسار القلب، وأحادثُ نفسي قائلة: أنا وحيدة في ليل طويل، مثل صخرٍ لا يلاحظها أحد.

أريد حبرًا بحجم الليل؛ لأكتب عن آلامي، وأخط كلمات تختبئ وراءها أوجاع الروح وتصيب القلب بالدوار.

تذرفُ عينُ الكتابة دمعةَ حبر.. وأبقى حائرة؛ ربما لأن غرسَ النباتات في مقبرة لا يجدي الآن.

سديم

"ألم تظفر الأسرار من صدري بقبرٍ مغلق تستكن فيه وتموت؟ فما سرُ هذا الإلحاح العنيف؟ وكيف سللتُ القلم لأنبش قبرًا تراكم عليه ثرى الإخفاء! لقد ضاعت الحياة، والقلم ملاذ الضائع، هذه هي الحقيقة. إن الذين يكتبون هم في العادة من لا يحيون"[6]

ولِدتُ على حرير هذا السرير، وغالبـًا سألفظ آخر أنفاسي فوق أشواكه.

وريدي نامتْ فيه إبرٌ اختلطتْ بملح دمي، وجلدي حفظ الأشكال القصوى للألم. كل يوم أُمنّي نفسي بأن ما يحدث مجرد كابوس سيزول، وفي كل لحظةٍ، أشمُّ رطوبة القبر.

لكنني ما زلتُ حيـًا في هذا الفراغ الفسيح المُسمى الحياة.

لي إرادةٌ لا تلين، لكنني أنتظر نعمة مَرْجُوَّة اسمها مَلك الموت. رَقَّ دَمعي لتأخره، أعاهده بأن أتبسَّم حين أراه مادًا لي ذراعيه، قبل أن نختفي سويـًا مَع حبَّات النور.

---

[6] نجيب محفوظ، السراب، مكتبة مصر، القاهرة، 1948، ص 3.

أنا والموتُ معـــًا في هذه الدائرة الجهنمية للحياة. ومثل رفاق السجن، يعرفُ أحدنا عن الآخر أسرارًا رهيبة.

حياتي تشبهُ ممرًا فِي حُلمٍ، ومقلتاي تخبئان في قرارهما سرًا واضطرابـــًا، مهما بدا على ملامح وجهي من هدوء.

بدني هذا مقضيّ عليه، وأنا مقاتلٌ جرحته القصيدة.

لا بأس، سيَنْسونني، فأصير في لون الضباب.

سيَنْسونني، وسأتذكرهم جميعـــًا.. يا لجمال حضور الغائبين!

أتذكر كذبهم المفضوح ووداعهم المرتبك. لقلبي العليل إخوة، يتنكرون له. والأصدقاء ليسوا أولئك الذين يتقاسمون معك النكات والمكائد، بل الذين يغزلون من أرواحهم ذلك القطن المبتور في وسادتك.

اقرأ في خطوط راحتي أيها القدر عن دائرة معارفي التي تنقص يوميـــًا حتى تغيب.

اقرأ ما نقشته الأحلام والأوهام: عميقـــًا تنمو في صدورنا زهور أصدقائنا الراحلين.

في سن الشباب، كنتُ أصَادِقُ المُسْتَحِيل، ونتسابق فأسبقه إلى الحياة. ومع التقدم في العمر اكتشفت أنّ الحزم لا يعني بالضرورة أن أكون ضد إنسانيتي.

لا أدري، أنا الذي أقدَمَ على نحر الجمود، لماذا مظهر خيوط الصوف الصغيرة المحيطة بالمعطف كزغب رقيق، يُذكّرني بموسيقى يوهان سباستيان باخ المتمهلة!

جوب شوارع الكلام، ثم أتكئ على كتف كونٍ لا يتسع لي.

أمرُ على طُرقٍ، تحاول عبثًـا تصفية الهواء قليلاً من ثقل آهات العابرين.

في السوق العتيقة، يبدو القيظ قصديرًا يتصبب من السماء ليصهر المارة على هيئة تماثيل غارقة في العرق.

في الكعكة الحجرية، جسدي يدافع عن الميدان، كأنه الوطن.

في البيت، أحترق برماد أفكارٍ تحلق فوق أوتاري المشدودة، وأبحث في سديم النصوص عن كواكبَ تمردتْ على هذي المجرة.

في الليل الغامض، أطفئ مصباح الشرود، ثم أقف أمام نافذَتي الشّفّافةِ متسائلاً: كيفَ اللّيلُ بلاَ نهايةٍ؟

لا ضوء القمر ردّ الخطى عن مساحات هذا الظلام، ولا النجمات البعيدة بددت عتمة روحي المثقلة بالظنون.

الكآبة قاطع طريق محنّك، يصرخ في وجهك: سعادتك.. أو حياتك؟

هم يتضاحكون احتفالاً بانتصاري المهيب؛ وحدي أعرف أنني لستُ كل هذا الصخب.

ثم أتذكركِ.

المرأة التي باركها الزهو، تنتقي ثوبها من البستان، وتضع وشاحـــاً سماويـــاً من الغيومِ. حتى حناء ساقيها تغار من فخذيها، مثلما تغار الريحُ من أناقة شجرة. تملك نظرتين ثاقبتين، تكشف بهما عن شروطها القاسية.

تُحذرك ابنة شقائق النعمان:

"الديمقراطية تقف عند عتبة بابي.

تعشقني؟

إذن علّمني الآن وفورًا أبجدية القبل؛ لأكتبَ لك كلامـــاً من نار.

تريدني؟

إذن املأني الآن وفورًا؛ لأكتملَ بك".

ضحكتُها، فضةٌ ترقص على حقل الحنين، وندى يلاحقُ تعاريجَ الغَيمِ، وصوتها المتكسّر سُلمٌ للجنة، وهي همس لي: عِدني بأن تُحبَّني بحنان.

يُدوخني عطرها العالق في خيوط قميصي، وهي تقول لي: أيقظ بالعض الخفيف هذا المرمر النائم لأحُدَّكَ من كل الجهات، وذُق عسلي المُسكر في وعائه الثمين. سأكون ثُقب إبرتك، فاعبُرني.

نتبادل القبل ونشيخ. نتعانق، فيخدعنا دهاءُ الوَقْتِ المخاتل.

كم من قُبلةٍ كانت بيانــًا ساحرًا، يعجزُ الشعراء عن نظمهِ.

تبتكرين طقوسكِ الفريدة، كأن تباغتيني بالقول: "هذه الليلة هادئة بشكلٍ مُريب.. ما رأيُكَ في أن نُحوِّل هذا السرير إلى حلبة مُصارعَة لِقتْلِ الملل.. وحتى لا تغش سأطفئ النور"!

أمَرر كَفَي بِخفةٍ على خصرِها، فانحناءاهما تعويذتي الأثيرة.

نُسيتُ، أن أودعكِ، أنا المحكوم بآهةٍ لا تهدأ.. فلا تفطري قلبي أيتها الأغنية الناطقة بالسمو.

تمزّق حُبُّنا بين جهات الكلام؛ والحُبُّ قافية لا تكف عن التنهد.

الشمس امرأة جميلة تزور البيت كل صباح، ولهذه الستائر بياضٌ لا يُحتمل.

الفرحة ضيفٌ طارئ على هذا الجسد الهزيل، الذي قرر أن يأخذَ إجازةً منَ الحياة.

تهرم بغتة جميع شراييني. أسير مَكشُوفَ الصدر للرِّيح وللخَنَاجِر، والطعنة تكنس بقسوةٍ هواء "الصداقة".

لا فكرة لدى البطل عن الموت سوى أنه آتٍ حتمــًا، أما الذليل الذي يختفي وراء ظل الآخرين ويصفق لمحاضرة خطباء الحدائق عن نهاية العالم، فهو مذعورٌ من فكرة أن الحياة تقصر كل يوم.

لا أوسمة في هذي الدنيا، والزمن جلاّدٌ لا يسأل عن رغبتنا الأخيرة.

كم تكون الأشياء أحيانـــاً أمامنا ولا نراها!

وداعـــاً أيتها المرايا التي عشتُ فيها. سيتحوّل كلُ شيء إلى غبار..

وربما سيأتي يوم نكتشف فيه أهمية أن نتذكر.

سقوط حُرّ

"عندما تشعر الشجرة

بالضربة الأولى للفأس

تميل باتجاه الرجل وتقول:

اضرب من الجذور يا صديق

كي لا أرى نفسي أسقط"[7]

لم يشغلني طنين جهاز تخطيط القلب عن الكتابة لكِ.

هأنذا أرقد مستسلمـــاً على سرير، في لحظة تتشابك فيها كل المصائر.

في غرفة العناية الفائقة، ثمة حُمّى تنام إلى جواري وتبلل الملاءة بالعرق الذي ينز كما لو أنه ماء جسدي يتطهر من ذنوبه.

أراوغ الألم، مثل بئر تئن وهي تُنكرُ البلل. ذراعاي راقدتان فوق السرير في ثباتٍ مهيب، وجلدي ينتفض مثل عصفور بلله مطر ديسمبر.

---

7 Malcolm de Chazal, Plastic Sense, New York: Herder and Herder, 1971.

كل ما حولي ماء.

لا أحد يتحسَّس جبيني ويسترضي شياطين حرارتي المرتفعة كي تدعني وشأني ولو قليلاً.

لا أحد يُقبل جبهتي، ويهدهد هذياني، ويواسي عقلي الغارق في الغياب ببضع كلماتٍ مؤثرة.

لا أحد يزورني، كأنما باب الغرفة يقضمُ كفَّ الطارق. في جحيم العزلة، تبتكر مقابض الأبواب والأقفال والمفاتيح مرض الصدأ.

وحدها الممرضة بوجهها المحايد تُعاين حالتي في مواعيد تناول الدواء، وتنتظر موعد انتهاء ورديتها المضجرة.

غالبـــًا لن يزورني أي طبيب هذه الليلة، ولن يستفسر من الطبيب المناوب عن حالتي أيّ من معارفي الذين يحتمون خلف طبقات من التحفظ والانتماءات المزيفة.

كم فتّتني الجفاء!

حملتُ علّتي ومشيتُ بين الناس؛ لأموت كل يوم بمقدار. أبحث دون جدوى عن جثة شيء رأيته عندما كان حيـــًا من قبل، اسمه الحُبّ.

حين سقطتُ فجأة في نهر الطريق، عجزتُ حتى عن الاستغاثة، مثل موال جفَّ على شفة حطاب. سألني من تجمهروا حولي عن

عنوان البيت، فأجبتُ: عنواني هو ذلك الشارع الواسع الذي لسوء حظه لم يصبح ميدانــًا، وتلك الشقة الفخمة التي لسوء حظها ليست وطنــًا.

ثم ران صمت طويل؛ يحدث أحيانــًا أن يحول الصمت بيني وبين ضجيج الحياة.

لم أكن بحاجة إلى هذا السقوط الحُرّ حتى أدرك كم أنا إعصارٌ وحيد؛ لا أحد بجانبي غير جحيم صفيري وأنقاض الهاربين.

تاريخي مع الوحدة يجعلني أتقن تمامــًا دور الإنسان المتحفظ، الذي يتفادى لعبة انتظار الآخرين.

هل أنا نبيٌّ في غار وحدته الشفيفة، أم يتيمٌ معفى من اللوم ومن المودة؟!

أرقد على سرير وحدتي؛ غرفتي متشحةٌ بسكون حذر مثل حديقةٍ مهجورة يرتدي فيها اللوز حلّته البيضاء، وأنا أضيعُ مثل الندى المهووس بحرف زهرة.

أمرّن نفسي على قيامتي، والإبداع الجامح في الموت المؤجل.

لن أنجح كثيرًا هذا المساء في مداراة هشاشتي؛ سأظل مُحملاً بعتابٍ صامت للغائبين عن المشهد بإرادتهم.

كم أفتقد أمي، التي كانت تندهش من أين أتيتُ بكل هذا الحزن، ولا تدري أنها نبعه الأصيل.

الإبرة الصغيرة حد الاختفاء، تمتصّ من حياتي ألوانها، وتُذكرني بوخزها المؤلم بملامح يدي المتورمة من الحقن واللصقات الخشنة. في المشافي، يعقد الجلوكوز صداقة مع الأكياس الشفافة المعلقة مثل مشجب الندم. قطرة تلو أخرى، يمتص جسمنا الواهن سوائل تبعث على الشفقة.

كم الساعة الآن؟

لا بدّ أنها الظهيرة الحارقة، والشارع الذي ضاق بالأرواح الهائمة، لا يطيق مرتاديه من كثرة ما ازدحموا ونشروا ضوضاءهم القاتلة وسموم عوادم سياراتهم. يا لشقاء عاملِ النظافة الذي يكنس ما تبقى من أحزان البارحة ثم يكومها جانبـــاً.

في أي شهر نحن؟

لا بدّ أننا في مايو، شهر القسوة الذي يهجم عليّ بوحشيته المعتادة كل عام، قبل أن يصالحني شهرٌ آخر على الحياة.

النوم يتوسل، لكن الشريط الدائر في ذاكرتي يعشق زر الإعادة.

أطفئوا أنوار الغرفة، فالظلام يلائم البوح. أريد نصلاً من عتمة، يُقطّع قلبي إلى حكايات.

أحِنُ إلى كل ما هو خارج هذه الغرفة الخانقة؛ الطرق الضيّقة الزّلقة، والمحال التجارية بلوحاتها الملونة الكبيرة المحاطة بأضواء النيون، والمكاتب الإدارية بواجهاتها الزجاجية المعتمة، والفنادق الفخمة، والمطاعم الآسيوية ذات النكهات الغامضة؛ أشتاق إلى خشب البيت الذي برح به الغرام، والباب الذي له صريرٌ مثل موّال عراقي قديم، كلما ضغط عليه أناسٌ أضناهم الشغف؛ أتوق إلى الأصابع التي تعزف فتنة الألحان على البيانو الألماني العتيق في صالة البيت، وصوت الحروف الذي تخلقه آلة كاتبة باعها لي سائحٌ إيطالي كان كلما أرهقته الشمس، رطّب وجهه بقبلةٍ قديمة، يحملها دائمـــاً في جيبه.

في الخارج شبان يتسكعون على ناصية شارع ضيق؛ يتبادلون النكات الفجة والشتائم الصاخبة، قبل أن يعودوا إلى بيوت مضجرة، حالمين بغدٍ لا يكررون فيه هذه أكاذيبهم اليومية.

في مكانٍ ما تتعدد الصور؛ أمّ تحشو وسائد الأمل لابنتها كل مساء، وتخشى أن تطال كفُ الخذلان جبينَ البراءة؛ طالبة تسير بمحاذاة السور الطويل، وهي تضم إليها حقيبتها المدرسية، كما لو أنها عصفورٌ يخشى قصقصة جناحيه؛ جار مزعج يبدو صراخه في زوجته وابنه نشيدًا مثاليــاً لكل الكارهين في العالم؛ جارة تُحرر صدرها من قيود رافعة النهدين، ليسقط ابن الجيران في شراكها يومـــاً ما، رجلٌ ينتعل حذاء رياضيــاً مستوردًا، ويخرج

ليريض كلبـــاً من سلالة نقية يهز ذيله فرحـــاً لأن العالم يراه مع سيده الجديد؛ صعلوك يقف مضاجعـــاً الوقت بكآبة، فيما عيناه قاطعُ طريق ولسانُه عصابةٌ ضارية؛ سياح يحركون شفاههم بلغاتٍ غير واضحة أمام بائعة تماثيل مقلدة في أحد متاجر وسط البلد، ويحاولون في طريق العودة إلى الفندق فك ألغاز الوجوه والعبارات التي تركها رسامو الغرافيتي شاهدًا على جدران المباني؛ غرباء ذوو حافظات نقود جلدية متشابهة، ينادون العابرات في شوارع غامضة: تعالين نسرق نجومكن، مقابل ورقة عليها وجه القائد المفدّى.

شخصيـــاً، أُحِبُّ النزهات الطويلة، حتى لا أجالس روحي وأكتشف في أقبيتها ملامحَ أوجاعٍ لا تُحتمل. يا لبؤس الأحذية، التي نجبرها على أن تدوس على أرض مبتلاة بآثامنا الساقطة!

كلما وصلنا متأخرين، كلما قتلنا الحنين إلى سراب ما فاتنا. والحنين مسحة حزن اختلطت بالشجن.

أفتش في ذاكرتي عن امرأة كان ينبغي عليها السهر على جسدي، فلا أجد سواكِ؛ حبيبتي الأولى، التي كلما عانقتُها، لم أُبقِ منها شيئـــاً لُمستقبلي المَجْهول؛ أميرتي التي كلما أدركتُ المقطع الأخير من ضحكتها، اصطادني الحاضرون متلبســـاً بفعل الفرح؛ جميلتي التي كلما قطفتُها وخطفتُها سالتْ منها نعومتها التي لا تُضاهى.

معكِ فقط عرفتُ تلاحم الكل مع الكل، وسكون الشمس في رحم الظل.

معكِ أنتِ، يا فصيلة الغيم، استقامت باقي سماواتي.

كنا معـــاً، مثل صوتٍ يعانق زوايا البيت، ودافئين مثل شالكِ الشتوي، وغامرين مثل رائحة عطر قميصكِ الليلكيّ.

كنا معـــاً، حتى لو كنتُ مستلقيـــاً في زاوية كتاب، ألف أصابعي حول خاصرة قلم؛ وأنتِ في مكان آخر متكورة أمام طبق رقائق البطاطا، متدثرة بقصدير لوح شوكولا!

رسائلكِ كانت ترسم ابتسامة على شفتيّ بعبارات لها وهجها الخاص؛ كأن تقولي: "غبتَ طويلاً وكثيرًا. أنتظرك، وأنا كما عهدت، مُحرِقةٌ في عناقي"، أو ترسلين لي رسالة نصية لئيمة تقول: "تصبّرْ عن غيابي ببعض المكسّرات وقطع مختلفة من الفاكهة المجففة؛ لو لم تفعل لن تُقدّر قيمة المرأة الفاكهة التي سقطت على حِجرك من الجنة".

ككل عاشقةٍ، تجيدين حدس مواعيد القلب. أتلو عليكِ قصائد تدفقت من ينابيع روحي، فتهتز طيور فرحكِ التي تشتهي التحليق.

لكنكِ اخترتِ الفراق؛ لتصبحي حواء التي فرت يومـــاً من أضلاعي. تقفين متظاهرةً بالثبات؛ إذ تودعينني قائلة لنفسكِ ولي: ستكون بخير.

لعناهم، وطعناهم، أيتها المطمئنة، تطاردني حتى لا أكون كما تتمنين. كل الذين منحتُهم وردة رشقوني بسكين، وطعنوني بنصل كلمةٍ مسمومة، ولدغوني مثل البعوض الاستوائي، ثم تركوا جثتي على قارعة الطريق، وسارعوا للحاق بموعد آخر حافلةٍ تعيدهم إلى الجحيم.

دعيني أعترف؛ مازلتِ تتسربين من أوردتي. ليس كل ما يموت في ذمّة النسيان.

كل امرأة عرفتُها بعدكِ كانت خيبة أمل كبرى. كُن يفاجئنني دومـــًا بشعور عام بفقدان جذري للصلة بالواقع. ربما كنتُ أنا الذي انقطعتْ صلته بهذا الواقع.

كنتُ أتناول أقراص عدم الاهتمام، وأمضي.

لا بدَّ أن روحكِ تركتني من غير روح.

البكاء الذي سَقطْتُ من حافّته، فاز بكل اللعناتِ التي أحفظها.

ليتهم يفتحون نافذة ما في هذه الغرفة التي تحتاج إلى تهوية؛ ثمة روائح حُبٍّ عفنة تزكم أنفي وذاكرتي. امنحوني نافذة؛ للشّبابيكِ ضحكةٌ تُصيب سَقْفَ السَّماء بالدُوار.

كم الساعة الآن؟

في أذني صوت غامض يقول: لا تسأل الوقت عن حذائه الثقيل، بل سله عن قيامته في عينيك حال الانتظار.

بي رغبة ضارية في أن أنزع عني قناع الصلابة؛ لأمارس ذلك النواح الداخلي مثل رصاصةٍ أفلتت من مسدس كاتم للصوت.

ضربني شعورٌ مفاجئ بالكراهية.

أود أن أكتب إلى أصدقاء كانوا – حين احتجتهم– مثل ريحٍ مرت قربي من دون أن تطرق بابي، ما قاله الشاعر:

جَزَى اللهُ الشَّدَائِدَ كُلَّ خَيْرٍ ... وَإِنْ كَانَتْ تُغَصِّصُنِي بِرِيقِي

وَمَا شُكْرِي لَهَا حَمْدًا وَلَكِنْ ... عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي مِنْ صَدِيقِي

يقولون إن الحكمة تتولد من التجربة؛ هذا خطأ فادح. الحكمة تتولد من الألم أو ربما الندم. إنها حالة الإنهاك النفسي التي نمر بها، ونسبغ عليها رؤية فلسفية، حتى نتخلص من صدمة الإحباط ولوعة الفراق ولحظات الفشل.

نقف عند حافة الخوف التي تغلف أوطاننا المطلية بالدم والمعمدة بالآلام، ونخترع كلماتٍ نخرج بها من مأزق الحياة.

الحياة؟

إنها النقص الذي لا يكتمل إلا بالموت.

في لحظة الحقيقة، أكتشف أنني لا أريد أن أكون زائري الأخير!

قلبي بدقاته المتسارعة، أضعف من أن يُسابق جسدي المُنهك.

أعطوني ورقة وقلمـــاً، وخذوا خافقي الذي عبث به الأنام والأيام؛ هاتوا حبرًا يمنحني السكينة، وخذوا دموعي التي لم أذرفها إلا سرًا.

أيها المحراث الأصم، فتش عن أرض جديدة، ودع عنك تربة روحي.

قلبي العليل أرسل إشارات الفرح، ثم تركها معي واندس وسط الجموع.

لن ألحق به هذه المرة، فهو أسرع من نداء استغاثتي الأخيرة. بثمنٍ باهظ غير متوقع، قد تفلتُ منا الحياة.

أنحدر إلى الفناء، مثل وجبةٍ سريعة لأحد أفاعي بورتريكو المهددة بالانقراض. أسقط في مهاوي الكهوف العميقة وأنا أتحسس صخورها المدببة.

قبل الغصة بقليل، هب عليّ نسمة هواء، كأنها وليدة رفرفة طائر يختزن ريش جناحيه أكسجين الحياة، فتستعيد ملامحي سيرتها الأولى.

أشعر بشيء من الموت؛ سوف أنام قليلاً.

الفتى الذي شَرِبَهُ النهر

"ضاع تعب العمر كله، ولم يبق في أرض الوطن سوى الاستبداد، وهو شر ما ابتلي به الإنسان. عضني تلاميذ وأبناء أعطيتهم تعب العمر كله. سيبقى - فقط- وطن صيرناه بأيدينا غابة غدر وجهنم قهر"[8]

ابتلعه الماء. استقبله النهر بفتور، كصيادٍ لا يتباهى بفرائسه.

هبط إلى القاع وحيدًا، ليفوِّتَ الفرصة على صنبور حزين في مغسلة الموتى.

كنس الماء ظله، دون أن تبعثره الرهبة.

كانَ الموتُ مُعدًّا له بدقّةٍ بالغة، وهو الذي عاش، ومات، على جُرف الصمت وحافة الغبار.

مهزومٌ، لم يمتلك يومــًا سوى ترف إبداء الامتعاض من جميع الخيارات.

---

[8] د. عبدالغفار مكاوي، بكائيات: 6 دمعات على نفس عربية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1987، ص 262.

سيقول البعض إنه كان مستهترًا طوال حياته. ربما كان ذلك صحيحـــًا، لكنه كان يبحث عن نقصه ليكمله. يؤمن أن الخطأ أصل الدهشة، وأن كل الخرائط تزخر بتعاريج محرجة.

انطوائي، يشعر دومـــًا بعدم فهم الآخرين له. يُعلق على جدران منزله لوحاتٍ غريبة تطرد الطاقة الإيجابية من البيت. في هدأة الليل، تصيبه حُمَّى الهروب، فيركض خلف الطريق، حتى إذا طلع الصباح حاول مواجهة العالم بقهوة تحتمي بكوب ورق مقوى، وهو يخبئ رأسه خلف جريدة أو وراء غلاف كتاب.

يضيف قليلاً من الأسى الطازج، إلى حكاياته القديمة، علّه يؤمن بمصائر أبطالها المضجرين.

امتلأ بالحكايا، حتى صار مفعمـــًا بالأساطير. يحلم بركوب زوارق ورقية يصنعها من تذاكر الحافلات والقطارات، وينتظر ليلاً يقف خلف كتفه مثل شخص مقدّس حان ظهوره.

تقصفه بالأسئلة، فيجيبك من من وراء سحابة كحول داكنة وذكريات ملتبسة: أشعلتُ النار في حكاياتي، ووضعتُ رمادها في جرة ذكريات. لم يعد هناك ما يستحق أن يُروى، وبيوتنا التي من حلم، صارت كوابيس.

ينظر إلى كفه ثم يحكي بنبرة رجل ناضج: مهترئة جدًا هذه الأصابع؛ كتبتْ عن كل شيء ولم يمسح عليها أحدٌ بحنان. كنتُ

صديقَ الجَميع وكم أنكرتُ نَفسي من أجل الآخرين، لكن بعد طعنات غدر متكررة أشفقتُ على نفسي كثيرًا وانزويتُ في ركنٍ قصي اسمه الكتابة. هل جرّبتَ أن تنام مخذولاً؟ أن يمرّ الكثير أمام باب ذاكرتك من دون أن يلقي التحية؟

يا لفؤوسنا التي لا تقطع إلا أشجار العائلة.

يناجي نفسه قائلاً: أنا كل الأخطاء القاتلة في الوقت المحتسب بدل الضائع؛ أنا كل الأشواط الإضافية العقيمة؛ أنا كل حالات التسلل التي سجل فيها الفريق المنافس، والمباريات التي فاز فيها خصمٌ ضعيف بطريق الصدفة؛ أنا كل لاعبٍ تأكله الحسرة على ركلة جزاء أهدرها أو هدفٍ لم يحتسبه حكمُ المباراة المتحيز. أنا كل الجماهير الحزينة على الهزيمة المذلة التي مُنّي بها فريقها رغم هتافات التشجيع التي تصم الآذان. لطالما كنتُ الشخص الذي لا أريد أن أكون مثله.

من لقلبه المُستّاء؟ من لرّوحه الضّجرة؟

اعتنق ديانة العطر، لكنه سقط في اختبار الرائحة.

عشق امرأةً كلما احتضنَها رأى القدرَ يقف ساهمــاً خلف كتفها؛ كأنها غابةٌ، كل أشجارها تناديك، ثم تنصحك بالفرار. كأنّهـــا غُـــصْـــنٌ من البــــانِ، بقوامها الرشيق الذي يُناصب حمالة الصدر العداء.

يا لجمالها الذي نثرته في الطرقات!

في حضوره، تضحك كثيرًا لتذيق عينيه حلاوة السُكّر على شفتيها.

حين يحتسيان القهوة سويةً، يتبدّل مذاقِ حياته. وكلما اختبر أرضها، ابتلعته رمال جمالها المتحركة.

يكتبُ لها قائلاً:

"أحِبُّ غيرتكِ الرعناء، وقسوتكِ المفتعلة، وكيف تمسحين على جروحي برفق وتطهرينها بدموع الندم؛ أحِبُّ غضبكِ الذي يتعالى ثم يسقط أمام جيوش حنانكِ. أحِبُّ خصامنا السخيف وشجاراتنا المعقدة. أحِبُّكِ عندما تتركيني ثم ترتدين عن قراركِ؛ تظهرين آيات الجفاء وكأنكِ لا تعرفينني، ثم تعودين لتفتحي لي برحابة صدر أبواب جنتكِ".

يشاهدان معـــاً الأفلام التي تهرب من فخ الأفلام السعيدة، ويصطادان نجومـــاً صغيرة من الفستق كلما عصف بهما الجوع؛ وهي على الدوام ياسمينة ترتل آية الحُسن.

كانت سدرة اللّذة، ومُنتهى الغَرق.

العشق علّمه الفلسفة؛ إذ يقول: سقطت قنبلة على الحرب، فماتت الراء غير مأسوفٍ عليها.

غيابها عنه سيغير عالمه. سيشعر أنه مسموم ويموت قليلاً في كل يوم. سينتظر طويلاً حتى تعود، أو قد تحلّ مكانها امرأة أخرى مناسبة للنسيان.

صارت كل الأشياء في عينيّه رمادية، كأن الألوان هربت إلى الضفة الثانية من الحياة.

لعُمرٍ كامل، أغلق قلبه وعلّق عليه لوحة تقول "مغلق لدواعي الحيرة".

أيُعقل أن نعاني كل هذا الألم ضريبة لحُبٍّ جارف؟!

في العشق والعمل، جنوده هُم جنونه.

يلجؤون إليه زَرَافاتٍ ووُحداناً، فيمنحهم دائماً إجابات هادئة ودسمة تساهم في تفتيت قلق يجتاح صالة التحرير. سيتنزهون جميعاً في غابة حزنه، حين يحتاج إلى أيدٍ صديقة.

يبدو مثل بطل فيلم "صمت الحملان"، الطبيب النفسي العبقري هانيبال ليكتر، الذي يحتاجه الناس، لكنهم يخافونه.

في الطريق إلى مكاتب الرجال المجرّبين والطاولات العامرة بوجوهٍ متوترة، تتعثر بمشاهدة فتيات جميلات، ذوات خصور ضامرة كقبضةِ ريحان،يصلحن للعمل في مجاليّ التسويق والعلاقات العامة. سيسقطن أيضاً في ثقب العبَارة، تسبقهن ضحكاتُ التشفي.

في المكاتب الأنيقة، كان غبار النميمة يتراقص فوق الأرضيات اللامعة. ربما لهذا يمضي كثيرون سادرين مثل ثيران السواقي المعمّاة.

ها هو يشتاق الآن إلى الاستوديو الذي يبتل بنحو 24 شاشة ترصد تفاصيل أَوَّلِ عارِضَةٍ من شُبْهَةٍ في القنوات المنافسة.

دائمــاً نشتاق للشخص الخطأ، أو المكان الخطأ.

لا بدَّ أن يكف عن ملاحقة الأخبار العاجلة على شاشات الجزيرة والعربية وسكاي نيوز عربية، وأن يكتفي بالفرجة على أفلام تناسب ذائقته على قنوات MBC أو Fox Movies أو Rotana Classics

يتذكر صديقه المقرب الذي كان يتمنى ألا يأتيه خبر وفاته ليلاً. يعرف كم نحن أكثر ضعفــاً وهشاشة في هدأة الليل ووحشته. يخفي وجعه ويحملق في آيات الفراغ.

في تلك الليلة المْطِرة، كانت المظلات الملوّنة أزهارًا تجري في الشارع.. لكنه كان حزينــاً.

كل ما يعتمل داخله يبدو واضحــاً على وجهه ويصعب إخفاؤه، كما لو أنه نهرٌ؛ يفيض على ضفتيه حتى يبتل العشب.

على ضفاف بحيرة هادئة في مدينة بعيدة، يكتشف شيخوخة الماء. هنا، تجري دماءُ الماء في أوردةٍ شفافةٍ، كي نراها.. وترانا في الوقت نفسه.

بأقدام شققها الارتحال، أخذ يتقصى أثر الحياة، إلى أن صدَمته شاحنةُ الخيالِ.

يقول: كانت الحقيقة أمامي على مرمى حجر، ولكني استغرقتُ عُمرًا في الوصول إليها.

والآن، من يودُ مساعدته ليس في مقدوره فعل شيء، ومن يستطيع على الأرجح لا رغبة لديه.

مُشجَرٌ هذا العمر بأوجاعه، التي تمارس هوايتها بحريةٍ مطلقة.

البوح مسكنٌ لآلام الانتظار.

يبكي، لكن البكاء لا يُجري الأنهار، وإنما تصنعها الينابيع.

لا أحد يضحك، وهو يشيخ.

يتساءل من شرفته التي تطل على الرطوبة: هل سيمنحني الله حياة أُخرى غير ضائعة؟!

وكأي نهاية هشة غير مقنعة، غرق ذاك الذي كلما زفر زفرة هوى الحنين.

لن يرى أحدٌ الأبديّة المكتوبة على وجهه، ولن يسمعوا كلماته الأخيرة: كم كان الموت بسيطـــاً!

بائــــرة!

لماذا يظن الرجال أننا لسن سوى نساء يتشحن بالجمال والندم، وقد أشقاهن إرث الانتظار؟

يتوهمون أنهم بعد أن أطلقوا عليها صفة امرأة كما لو كانت رصاصة، فإن هذه الصفة ستؤلمها دائمـــاً.

قد يبدو الأمر خاصـــاً جدًا، لكنه ليس كذلك؛ هو سخفٌ متكرر تتعرض له أي فتاة بعد سن الخامسة والعشرين: "ألم تتزوجي بعد؟ حتام تنتظرين؟ يا بنت، الحقي نفسك"، إلى آخر تلك السلسلة من الأسئلة الفضولية والتعليقات الطحلبية، وكأن الزواج هو الحل كما تروّج عائلاتنا الرشيدة. الغريب أن من يقتحمون خصوصياتك بمثل تلك الأسئلة متزوجون، ومن واقع الحال لا أرى في أوضاعهم ما يبعث على الطمأنينة لهذا الخيار "البطيخي" المغلق.

ما علينا!

قرر أحدهم أن أكون هدفـــاً لهذه المحبة القاسية. رسالة خاصة بدأت بسؤال بيزنطي سخيف: "هل ما زلتِ عَزْبَاء؟".

سؤالٌ يشبه التهكم على شجرةٍ لأنها تصادق شقوق الأرض!

تناسلت أسئلة أخرى لا تقل لزاجة عن الوحدة، وخطر العنوسة، وحق والديّ في أن ترى جنى الابنة وأن تحتضن أحفادها. أخذ يثرثر مثل ثلاجة بيتنا القديمة ذات الباب المفتوح على الدوام. قصفني بسيل من الأسئلة المسننة التي أكاد أسمعه يقول بعد كل منها (آها!) ويبتسم فرحـاً بالدور الذي يمارسه، ومحاولته أن يفتح لي عينيَّ على ما كنت أجهل من دورة الحياة. يتحدث بلغة الأحاجي، كأنما الأسلوب امرأة لعوب، ويستورد حكايات تجعلني بحاجة إلى تمارين التنفس العميق، والبحث في جيبي وحقيبة يدي عن أي حبوب مهدئة.

يصلح الرجل لأن يكون محاضرًا في الكتابة الإبداعية، مادة الهروب إلى حياة الآخرين، بحُكم أن حياتك الشخصية مضجرة!

في قاعة الحياة، انتمى صاحبنا على الداوم إلى مجموعة المتهامسين سخرية من المقاعد الأخيرة. تلك الفئة التي تشوش على الباقين، لكنها لا تريد في الوقت نفسه مغادرة القاعة.

يروا غ وطأة وقوعه في مفرمة التكرار، وهو يغرس في رأسي عباراتٍ تدور في فلك معنى واحد: العانس، أول الخواء وآخر المطر؛ تعبر جسر الوقت، ولا طريق.

بل إنه يحاول في حديثه توسيع مداركي ومعرفتي عن معنى كلمة عانس في "لسان العرب" وباقي قواميس اللغة ومعاجمها؛

ولا يدعني وشأني إلا بعد أن أحفظ جيدًا خلال محاضرته المؤلمة أن "العانِس من الرجال والنساء: الذي يَبقى زمانـــًا بعد أن يُدْرِك لا يتزوج، وأكثر ما يُستعمل في النساء. يقال: عَنَسَتِ المرأة، فهي عانِس، وعُنِّسَت، فهي مُعَنِّسَة إذا كَبِرَت وعَجَزَتْ في بيت أبويها".

قبل أن يرتد حاجبي الأيسر إلى مكانه الطبيعي من تلك الهجمة، وبعد المقدمة المراوغة الطويلة حانت لحظة الحقيقة، وجاءت لحظة الحسم.

المُخلّص يمد لي يده لإنقاذي!

وبما أني أجثو على ركبتيّ من الإحباط وفي حال من التوسل والاستعطاف، كما لو أنني أسّاقطُ من طمأنينتي، فإن الخبيث دس في رسالته ما يشير إلى أني الآن في وضعية الغريق، وأن يد المساعدة ستكون على هيئة عريس. حدث ما كنت أتوقعه تمامـــًا؛ مدير عام شؤون العانسات أتى لي بعريس يشفي جروحي القاحلة. يظهر لي لوهلةٍ على هيئة خاطبةٍ ازدانت يمينها بأساور ذهبية متراصة وصلت إلى منتصف ساعدها.

في الأفق عريس يمتلك عقد عمل من بلاد لا تملك منفذًا على البحر؛ ها هي السعادة تحمل حقائبها وتتجه نحوي هذا الصباح. ابعثوا إذن بأحدهم ليشتري الشربات، وهاتوا أي مأذون تصادفونه في الطريق، ودعوني أُخرج من خزانة ملابسي فستان

الزفاف الذي كنتُ أدخره خصيصـــًا لهذه اللحظة الهانئة؛ لأن حلم حياتي اقترب، والزغاريد على وشك أن تشنف أذنيّ. يا كريم يا رب!

لا أدري سبب هذا التجريح، وأسلوب التبخيس كأنه يشتري طماطم ويساوم البائع ليخفض السعر، بدعوى أن الطماطم بائتة ومن بضاعة البارحة؟

يبدو أنه كان لزامـــًا عليه أن يزعزع أي بوادر ثقة في النفس كي أكون تربة خصبة لبذور الطلب؛ لتزهر بطاقة مناسبات وفستان عروس وطرحة بيضاء، ويكون له قصب السبق في فك عُقدتي. يشعرني بأنني الآن مهملة ومهمشة، وكأنني قطعةٌ معدنية منسية في أحد أدراج بيتِ عائلةٍ مهاجرة.

ليس مستبعدًا في هذه الحال أن يصر على أن يكون وكيلي في عقد الزواج؛ لأنه يهز طبقات البلادة في حباله الصوتيّة وهو يقول بسحره المعطوب الذي فقد تأثيره: "لن نعقد لكِ إلا بعد أن تقتنعي". هل انتبهتم إلى حرف النون في كلمة "نعقد"؟

يبدو أن زواجي مطلبٌ قومي!

من الضروري أن تشعر الفتاة قبل أن تقدم لها الحل أنها ضائعة بدونك، تستدفئ بمعطف الصبر، وتظن في غيابك الهواء الذي يدخل من خلل الشيش أشباحـــًا. حيلة تسويقية لا أكثر. يعني

مثلاً: "لا يوجد رجل يخاف عليك مثلي"، حتى تشعري بالوحدة على الفور. ويعاجلك فورًا باقتراح يلحقك بركب الناجيات من شبح العنوسة، شريطة أن تقبلي بالنصيحة، خاصة أنكِ بائرة، أي أن سوقكِ في عالم الرجال يعاني "تقنيـــًا" حالة من الركود.

في الحقيقة أن إسداء النصح وخدمات توفيق رأسين في الحلال أو على وسادة واحدة، تُرضي المتسوق أكثر من المستهلك. إنها تسبغ شعورًا بالأهمية، ونحن النساء عادة، مجرد مضمار لخيل (الأنا) الذكورية المنقذة، التي ترى أن كل امرأة هي مشروع ربة منزل يُنتظر منها أن تطهو شيئين على نار هادئة، واحدة في المطبخ والأخرى على السرير.

يا سادة، توجد مشكلة حقيقية هنا، العنوسة ليست أحد وجوهها.

مشكلة أساسية في الحدود المائعة بين المخلوقات التي تعوم وتطفو على سطح هذا الكون، كالبصل الذي لم يتحمر بشكل كافٍ قبل سكب الماء الساخن في إناء الطهي.

مشكلة حقيقية في احترام خيارات الآخرين وعدم حشر الأنوف فيما لا يعنينا، حتى لو من باب (إسداء خدمة.

الأمر الثاني، هو أنه لا يوجد رجلٌ يمكنه أن يكون أبـــًا أو أخـــًا لإنسان آخر، سواء أكان رجلاً أو امرأة. كل إنسان أبوه

هو أبوه، وأخوه هو أخوه. وعلى الباقين إدراك هذه الحقيقة، والاكتفاء بأن يكونوا موجودين في مربعات العلائق الاجتماعية المحددة بدون أي مزايدات لزجة غير مستحبة. عنوستي أنا هينة، وكل عُقدة ولها حلاّل؛ أما القصور في الذكاء الاجتماعي فلا حل له.

هل وصلت الرسالة؟

أرجو ذلك.. وعفوًا أيها الرجال.

كل عام وأنتم بخير

عبارة أصبحت تثير ريبتي حتى لو سمعتها يوم ميلادي؛ أسمعها طوال الوقت، بسبب وبدون سبب.

الكل يرددها تمهيدًا لطلب شيء ما، عادة ما يكون بعض المال. أسمعها من "عم هاشم" وحده **365** مرة فى العام. ومن شرّفني بالزيارة لا بدَّ أنه يعرف جيدًا عم هاشم الكناس، فهو من معالم العمارة، تمامـًا كدرجها الرخامي وأبواب مصاعدها ذات اللون الأحمر الداكن.

يستظل عم هاشم بشجرة مشّطُت هيكلَها الرياح، محتضنـًا مكنسته المتهالكة المصنوعة من القش، ويميل إلى حالة السكون، مرتديـًا عمامة من تعب، وزيـًا برتقاليـًا ذهب بريقه منذ زمن. اتساخ زيه ليس سوى رسالة تحاول أن تقول لك إن عمّال النظافة يتّسخون كي يحافظوا على نظافتك!

قد تلمح في يده راديو ترانزستور بحجم راحة اليد، لا تسيل منه إلا الأغاني القديمة. يجلس هاشم كأنه صفحة مستعارة من كراسة طفل، يحدق في الفراغ بحدقة سمكة مُجفّفة، حتى إذا ما لمح أحد الخارجين من إحدى عمارات الشارع الصغير أو الوافدين إليها، هبَّ من مكانه وأمسك بمكنسته وحرّكها يمينـًا ويسارًا لتثير الغبار في وجه الشخص المستهدف، مرددًا ببشاشة

ناصعة عبارة لا تتغير: كل عام وأنتم بخير، حتى لو تصادف هذا اليوم مع ذكرى نكسة يونيو **1967**.

ليست هناك ثمة مشكلة لديه، ولا سبيل للعابر بتلافي هذه الأتربة إلا إذا أخرج "المعلوم". بعدها يتمطى هاشم مُستريحًا لخطته الناجحة.

أما أنا فقد اعتدتُ أن أتجه مباشرة نحو مرآب السيارات، فيأتي خلفي متبعًا الخطوات السابقة، ويزيد عليها وقوفه خلف السيارة ليوجهني يمنة ويسرة، قبل أن يخرج من جيبه صافرة نحاسية ينفخ فيها بشكل متقطع؛ بدعوى تنبيه سائقي السيارات إلى خروجي بسيارتي الزرقاء. وإذا ما اقتربت السيارة من الحائط، قفز فوقها بحركة بهلوانية تشبه حركات أميتاب باتشان في أحد أفلامه الهندية قائلاً: الحمد لله، ربنا ستر.. فتفور الدماء في عروقي وأستعين بالصبر؛ حتى لا أكون ممن ينهرون السائل، لا قدر الله.

إن سألته عن حاله من باب المجاملة، سيحدثك بعبارات متقطعة عن بناته الثلاث، ثم يشير إلى أن كبراهن "في مثل عمرك تقريبًا". وما بين عبارة وأخرى، يتودد إليك بتهنئته التي لا تحتاج مناسبة ولا تختار موعدًا.

يظل الرجل على هذه الحال، حتى تميل الشمس إلى الغروب. ينظر إلى السماء بعينين شبه مغمضتين، ثم يستوقف أحد المارة،

ويكتفي بالنقر على معصمه بالسبابة، وكأنه يسأل بلغة الإشارة "كم الساعة الآن؟". يأتيه الرد فيبتسم كناية عن الشكر، ثم يختفي بعدها بدقائق، كما لو أنه كائن نهاري يبتلعه طائر المساء.

بعد سنوات طويلة من عمله في شارعنا. لَم يَعُدْ أحدٌ يعرفُ إنْ كانَ كناســـاً أم بوابـــاً آخر للعمارات التي تتراص مثل البيادق.

عصر يوم الجمعة الماضي، طرق بابي شخص غريب أخبرني بملامح يكسوها الأسى أن عم هاشم قد توفاه الله وأنهم يجمعون مالاً لسداد نفقات جنازته. حزنتُ على الرجل بصدق وأخذتُ أدعو له وضميري يؤنبني على ضيقي منه، ففي النهاية تجمعني بالرجل عِشرة امتدت لسنوات. نهض سؤال وجر وراءه أسئلة حادة، قلقة، عن ظروف وفاة هذا المسكين، وحال أهله من بعده.

في الغياب لا نشعرُ بـــالوحشة، بقدر ما توجعنا نكزات القلب كلما طفتْ حكاية من مخزن الذكريات.

أفتح النافذة، ثم أغلقها بسرعة. لا أستطيع أن أنظر إلى الخارج، حيث كان عم هاشم يتكئ على صدر شجرة نصف مواسمها انتظار. أعود إلى مكاني، وأحاول أن أستعيد هدوئي.

بعدها بيوم واحد توجهت نحو سيارتي في المرآب، وأنا أحمل حقيبتي البنية اللون على كتفي الأيسر، وفي يدي ملف أخضر

يخص شؤون العمل. لم أكد أستقر على مقعد القيادة في سيارتي، حتى تنهدت طويلاً متعجبة من أحوال الدنيا وصروف الدهر. ملأتني أسئلة عن الحياة والموت، والبشر العابرين في حياتنا ومدى تأثيرهم فينا، وتأثرنا بهم.

أخذتُ في تشغيل محرك السيارة، وإذا بي أسمع صوتـــاً يتردد فجأة كأنه آتٍ من رحم العدم، ويقول: كل عام وأنتم بخير.

ابتسمتُ في نفسي. يبدو أنني لن أصدق خبر موت عم هاشمٍ إلا بعد حين، لكن الصوت استمر قائلاً: تحركي إلى اليمين قليلاً. نظرت في مرآة السيارة فوجدته!

نعم، عم هاشم بشحمه ولحمه!

هو ببشرته الداكنة التي لعقها لسان الشمس، وجبهته المتغضنة، وعينيه البارزتين، وشاربه الخفيف، وأسنانه المفقودة.. ومكنسته العتيقة.

بدلاً من السير للخلف، اندفعتُ للأمام من فرط الدهشة والارتباك. ولأول مرة ينقذني عم هاشم بحق، فقد قفز فوق السيارة ليمنعني من الارتطام بالعمود. عقدتْ المفاجأة لساني ونظرت إليه غير مصدقة. انفتحت عيناي على وسعهما، فيما قال عم هاشم بتأثر: كم أخذ منكِ ابن النصابة؟

عم هاشم لا يعنيه من جاءني ولا بِمَ أخبرني؛ كل ما يعنيه كم أخذ!

استطرد قائلاً: لا أحد يريد أن يعمل يا مدام. الكل يريد التسول والشحاذة.

أمسكتُ نفسي بصعوبة حتى لا أقول مستنكرة: يا رجل!

قبل أن أقول له الحمد لله على سلامتك، عاجلني قائلاً وابتسامة طرية ترتسم على شفتيه: كل عام وأنتم بخير!

اهتزازات زمن فات!

1981

أخرج من البيت وكلي أملٌ أن ألحق بالحافلة، وألا تكون قد مرت.

وكأي غريبٍ في بلاده، كان عليّ أن أتلقى دروسـاً قاسية، حتى لا أكرر الخطأ نفسه أكثر من مرة. القاهرة، كانت بالنسبة لي غابة كبيرة، تصطاد شابـاً مثلي لم يعش فيها زمنـاً يذكر قبل أن يلتحق بإحدى كلياتها في جامعة القاهرة. لم تكن هناك أشجارٌ في الغابة، فقط بشرٌ وزحام، وارتباك، ووقتٌ مشنوق بحبل الجمود. مصيدة مصنوعةٌ بإحكام، وكل ما في وسعك فعله هو أن تحاول الهرب، علّك تدرك النجاة.

ومن مصائد القاهرة، أو مصائبها، حافلاتها العامة.

صحيح أن تأخر الطالب عن المحاضرات في مدرجات الجامعة لا تترتب عليه عادةً خسارة جسيمة، إلا إن كنت بصدد اختبارٍ دراسي أو موعدٍ غرامي ما، لكن يبقى داخلك ذلك الإحساس – على الأقل في عامك الجامعي الأول– بضرورة الانضباط والالتزام بالحضور قدر الإمكان.

تنتظر وتبتهل إلى العلي القدير بأن تنال فرصة ركوب حافلة عامة، وتتمتم بما تحفظ من الدعوات الصالحات، وتُحدث نفسك أحيانـــًا، على أمل أن يأتي "الأتوبيس المنتظر"، حتى لا يبدأ يومك بما يكدر مزاجك العام.

أمام محطات انتظار الحافلات، يعبر العامة جسر الوقت صامتين، ينتظرون عطف الله في الطرقات، وفي رأس كل واحدٍ منهم قوافل تائهة.

لم يكن هناك مترو أنفاق، أو ميكروباصات أو حتى حافلات مملوكة لشركات خاصة. فقط عربات الترام، أو الغرام؛ لأنها تناسب العشاق الذين يرجون أن يطول بهم أمد "الرحلة"، والمسنين والمتقاعدين الذين يتصفحون الصحف ويمضون جُل نهارهم في الطريق إلى مقصدهم. وتقف خطوط المترو والقطار عند حدود ميدان رمسيس، أو "جمهورية باب الحديد". أما سيارات الأجرة "التاكسي" المعروفة بلونيها الأبيض والأسود وأجرتها المتأرجحة حسب مزاج سائقها، فهي في كل الأحوال ليست ضمن خيارات طالبٍ يسكن أقصى شمال القاهرة الكبرى، ويذهب يوميـــًا إلى الجزء الغربي منها.

ومثل الفول والطعمية، كانت "أتوبيسات كارتر" جزءًا من الحياة اليومية لأبناء القاهرة حينذاك، وكانت تلك الحافلات ذات المقدمة القبابية منحة لهيئة النقل العام المصرية في إطار المعونة

الأميركية، وحمل شعارها – الذي يأتي بجوار الباب الأمامي مباشرةً– رسمـــًا يعبر عن الصداقة؛ يدان متصافحتان يعلوهما العلم الأميركي.

لا أحد يدري على وجه التحديد سبب التقادم السريع وقصر عمر تلك الحافلات، وهل سوء الاستعمال، أم ضعف الصيانة، أم المطبات والحفر في شوارعنا. الأكيد أن معظم هذه الحافلات لم تكن في حالة جيدة؛ إذ تستقر نوافذها على أوضاع ثابتة لا تحيد عنها، في حين بهتت ألوانها وتلاشت بفعل الحرارة وأشعة الشمس القاصمة، إلى أن خضعت لعملية طلاء جعلتها في رأي كثيرين أسوأ مما كانت عليه.

التحدي الأكبر هو أنه ليس للحافلة توقيتٌ محدد، والصدفة وحدها تلعب دورها. وحين تتعطل الصدفة، تبدأ الحيرة ورحلة البحث عن بدائل، وهي في الأصل محدودة، مثل مغامرة التنقل بين أكثر من حافلة للوصول إلى الجامعة، بما يعنيه ذلك من استنزافٍ للوقت والجهد في طرقاتٍ نخرها سوس الإهمال حتى صارت مثل خيوط متشابكة بفوضى، في مدينةٍ لا تعتني بتفاصيلها. وقد يصير الأمل هو الوصول إلى ميدانٍ يضم محطة حافلات مركزية، حيث تتجمع خطوط الحافلات العامة. مئات السيارات والحافـــلات وآلاف الناس يصعدون ويهبطون في ميادين التحرير ورمسيس والعباسية والعتبة، وغيرها من مراكز إعادة توزيع البشر في القاهرة الكبرى وضواحيها.

الميدان هنا سُرة صغيرة في جسد كبير، منه وإليه يتفرع عدد مهمٌ من الشوارع، فيما تذرعه أعدادٌ غفيرة من المواطنين جيئة وذهابـــاً، في انتظار خط الحافلة المنشود. في الميادين التي هجرها العشاق والمصورون، واحتلها باعة الحلوى، وماسحو الأحذية، يكون الانتظار عذابـــاً.

وتمامـــاً مثل زرقاء اليمامة، يستطلع البعض الحافلة عن بُعد، كي يتأهب لمزاحمة الآخرين في الصعود على متنها، ومن ثم التسابق على أحد المقاعد الخالية، في مشهد هزلي مؤلم. وربما تصيبك خيبة أمل مزدوجة حين تجد أن معظم المقاعد محجوزة؛ لأن الركاب خططوا لركوب الحافلة وهي في طريق العودة، فقط لكي يضمنوا لأنفسهم مقعدًا في طريق الذهاب!

أما عندما يسعدك الحظ أو يسعفك بما يكفي لرؤية إحدى الحافلات العامة التي تسير وشقها مائل بسبب حمولتها الزائدة، فإنه يبرز أمامك تحدٍ آخر وهو الركوب. لا مكان عادةً للوافدين الجدد إلى هذا الجسم المعدني المتهالك. هناك من يتشبثون بأطراف أصابعهم بالباب الخلفي للحافلة الذي عجز عن الإغلاق، وأنت مطالبٌ بالقفز إلى الداخل ودفع نفسك بكل ما أوتيت من قوة كي تصبح محشورًا في مكان ما، بين درجة الباب العريضة وإحدى الزوايا الضيقة داخل الحافلة، والباقي عليك يا بطل!

وفي الأصل، لا تتوقف الحافلة تمامـــاً عند محطة الوقوف إلا إن كان السائق مضطرًا لإنزال ركاب. في الغالب الأعم، يهدئ

السائق من سرعة الحافلة، ليتمكن أحدهم من القفز إليها برشاقةٍ أوليمبية، وتجاوز الركاب عند بابها الخلفي، خشية السقوط من تلك الحافلة الطائشة. حتى عندما تقفز إلى الحافلة لتندس وسط الحشود الواقفة على بابها والمتراصة داخل علبة السردين هذه، عليك أن تحذر جيدًا من اللصوص والنشالين، الذين يفضلون الوقوف أو "الشعبطة" عند المدخل وتنسل أيديهم إلى جيوبك بخفةٍ بارعة كي تسرق منك حافظة نقودك أو ما تيسر من مال أو أغراض تحملها معك، خاصة في نهاية كل شهر، حين تنتفخ الجيوب بما توافر من جنيهات الأجور والرواتب.

بحكم الخبرة في الوجوه والمواقف، يحفظ السائق اللصوص والنشالين، لكنه يركن عادة إلى الصمت وعدم المبالاة على طريقة "وأنا مالي"، لكنه قد ينبه الركاب بجملة تحذيرية تشبه إبراء الذمة، يدعوهم فيها إلى الانتباه إلى أغراضهم وحافظات نقودهم. لكن لا تفرط في التفاؤل بخلايا الدراما في رأسك، وتتوقع أن تلتقي شخصيا بنموذج السائق حسن (نور الشريف) في "سواق الأتوبيس"، الذي يتدخل بإيجابية في نهاية الفيلم لإلقاء القبض على النشال، وينهال عليه باللكمات وهو يقول له صارخا من الأعماق: "يا ولاد الكلب"!

قد تلمح سائق الحافلة وهو يلوح بكفه السمراء لغريبٍ على الرصيف المقابل، لكنه يتجاهل إشارات الاستغاثة والتوسل التي ترسلها له كي يتوقف.

عليك أن تدرك أيضـــاً أن ألفةً ما قد تنشأ بين السائق وبعض الركاب الدائمين، وخصوصـــاً الأصدقاء والمعارف والسيدات، فيوقف الحافلة لهم في أي مكان بغرض الصعود أو النزول، فلا معنى يُذكر لمحطات الوقوف الرسمية في قاموس سائقي النقل العام. أصحاب الحظوة فقط، قد يجلسون على مقعد بدائي صغير، لا يظهر إلا بأمر السائق، ليتسامر مع من يريد خلال الرحلة. وقد تمتد جسور المودة، فتجده يضع لهم أرغفة الخبز الساخن على المفرش الأمامي للحافلة، حتى تبرد، قبل أن يأخذوها إلى بيوقم، حيث أفواه جائعة في الانتظار.

وفي بلدٍ إشارات مروره للزينة لا أكثر، وعساكر مروره بلا حول ولا قوة، يَمِيل سائقو الحافلات العامة إلى التعسف في القيادة ومخالفة آداب الطريق، مع الاستخدام السافر لأبواق التنبيه، وتوجيه السباب إلى باقي سائقي السيارات "الملاكي" والمارة ووصفهم بأنهم "بهائم" يستحقون اللعنات.

أما الكمساري، سيد الشق الجنوبي من الحافلة، ببذلته التقليدية الكالحة، فله زبائنه هو الآخر. وقد تجده من الكرم بحيث يمنح نصف مقعده الصغير أصلاً لفتاةٍ أو سيدةٍ أو صديق مقرب، ويأكلك الغيظ من اختلاف لهجته معهم عن طريقته مع باقي الركاب، الذين لا يكف عن مطالبتهم بالتحرك إلى داخل الحافلة، بدعوى أن "الأتوبيس فاضي قدام"، وسط تذمر الركاب وجدالهم معه في هذا الشأن.

الشعور بالغثيان هو أول ما يراودك كلما ركبت الحافلة وجربت جحيم النقل العام. رائحة العرق، والسوق، والسجائر المشتعلة خفية وسط كل هذا الزحام، تجعلك تكره حياتك مع كل طلعة برية!

في قلب الحافلة، قد يعِنُ لك أن تتساءل: كيف أصبح القنفذ هو المثل الأعلى لشعر الشباب في برهةٍ من الزمن؟

يقف شبان يرتدون القمصان ذات النقوش الخفيفة، الفاتحة الشفافة التي تظهر الفانلات الحمالات تحتها، وهم زائغو الأعين، يتأففون ضجرين، إلا إن كانت في صحبة أحدهم حبيبةٌ أو زميلة دراسة أو عمل. وتنكمش الفتيات الوحيدات على أنفسهن خشية المغازلات التي تتراوح بين التعدي بالألفاظ أو الأيدي.

تريد أن تقف بثبات داخل الحافلة، لكن الحالة المزرية التي هي عليها تجعل طلباتك أضغاث أحلام، في ظل تفكك الأعمدة التي يستند إليها ركاب الحافلة، وتفكك الأرضيات التي يقفون عليها.

لم يكن ينقص تلك المغامرة سوى الباعة الجائلين. وهؤلاء كانوا حاضرين بقوة؛ إذ يخترقون الزحام ويفرضون بضاعتهم المقلدة من الأقلام والدفاتر والدبابيس وإبر الخياطة والولاعات، والأدعية الدينية. ولكل موسم بضاعته، ولكل بضاعة طريقة خاصة في الترويج لجذب الانتباه وانتزاع البسمات تمهيدًا

للاسترزاق. ولا بأس من قليل ممن ينتحلون صفة جامعي التبرعات، حتى إن أحدهم ظل يجمع التبرعات لبناء مسجد وهمي في أول نفق شبرا لمدة زادت على عقدٍ كامل من الزمان.

دودة النقل العام تحاول شق طريقها، وسط زحام السيارات المركونة "صف ثان" والباعة الجائلين، والصعاليك المتسكعين بلا هدف ممن يأكلون نصف مساحة الطريق الفعلية، فيما ينبعث من الحافلات – لا عدمنا الله منها– عادمٌ كان مسؤولاً عن تلوث العاصمة المصرية ولاحقــاً ثقب الأوزون.

خط سير الحافلة المكتوب عادة بخط يدوي غير مقروء على اللوحة المعدنية الخارجية، ليس بقرة مقدسة. فقد يقرر السائق تغيير خط السير أو اختصاره بدعوى الزحام المروري، أو حدوث عطل مفاجئ. والمبرر الأخير قد يقودك فجأة وبسرعةٍ جنونية إلى أحد الجراجات العمومية، "فتح، ونصر، والمظلات"، التي تعد "مقبرة الأفيال" في عالم هيئة النقل العام.

أما اللوحة المعدنية التي تحمل الرقم وخط السير، فأمرها سهلٌ وميسور، وما على الكمساري أو السائق سوى مد ذراعيه من نافذة أحد المقاعد الأمامية للحافلة ليرفعها أو يديرها إلى الجهة الأخرى الخالية من الكتابة، لتخترق الحافلة مجهولة الرقم والوجهة شوارع القاهرة بحفظ الله ورعايته.

وسط ضجيج العاصمة، قد يفرض عليك سائق الحافلة ذائقته الغنائية، حين تدور أغانيه المفضلة من جهاز تسجيل يضعه أمامه وسط ديكوراتٍ اصطنعها لنفسه. وهكذا قد تستمع إلى "الست" أم كلثوم وهي تشدو بمقاطع من "سيرة الحُبّ"، أو يتحفك السائق بوصلةٍ من الأغاني الشعبية التي لا – وعلى الأرجح لن– تعرف اسم من يؤديها، حتى يلفظك باب الحافلة خارجــاً.

وفي كل الأحوال، اللهم لا اعتراض.

ومع ذلك، فإن روح السخرية تحاول أن تشد من أزر هؤلاء الركاب، الذين إن باغتهم سائق الحافلة بالضغط على الفرامل فجأة أو المرور فوق مطب أو حفرة بسبب طبيعة شوارع قاهرة المعز، اهتزوا في أماكنهم في رقصة إجبارية، وارتموا في أحضان بعضهم البعض دون سابق إنذار، وكادوا يتساقطون من النوافذ والأبواب مع كل حركة بهلوانية يقوم بها السائق، وهم يرددون في اعتذارية مرتبكة أن المشكلة على ما يبدو ليست في تخلخل أرضية الحافلة وتفكك أعمدتها، ولا في السائق أو الشارع، وإنما في الركاب أنفسهم!

السائق، سلطان زمانه، قادرٌ على مفاجأتك دائمــاً. فهو قد يوقف الحافلة في عرض الطريق، ليشتري علبة سجائر، أو يترل ليقف في "طابور العيش" أو أمام جمعية استهلاكية، أو مطعم لبيع سندوتشات الفول والطعمية. حدث ذات مرة أن كنتُ في

مشوار قرب منتصف الليل بقليل، حين توقف سائق الحافلة في منطقة نائية، ونزل ليختفي في الظلام. وبعد أن طال غيابه لأكثر من ثلث ساعة، سألتُ الكمساري عن السائق، فأجاب بهدوء قائلاً: "ذهب ليصالح زوجته". وتبين أن السائق تعرض لمخالفةٍ زوجية ما، وإنه كان بصدد دفع الغرامة لاستعادة رخصة بيت الزوجية.. وليذهب الركاب إلى الجحيم!

لم يكن الناس يفغرون أفواههم إن وجدوا الحافلة تحمل ما لذ وطاب من الدجاج والبط والإوز والأقفاص القادمة للتو من الريف، أو حتى أسطوانات الغاز التي تتحدى تذمر محصل التذاكر وغضب باقي الركاب. كل شيء ممكن، وأي شيء محتمل في النقل العام.. حتى الأمهات اللاتي يهبطن ثم يلتقطن أطفالهن من النوافذ بمساعدة الركاب الجالسين على المقاعد.. فالزحام أمُّ الاختراع!

بجواري شاب وفتاة يتبادلان حوارًا هامسًا تتخلله بين فترة وأخرى نظرات الهيام. الحياة ليست ذات قيمة من دون حُبٍّ، يخفف من وطأة عذاباتنا اليومية الأخرى ويحوِّل آلامنا كلها إلى أخطاء بلاغية.

أتشبث مثل غيري بمسند المقعد إن أمكن، أو بالعمود الحديدي الصدئ المتدلي من السقف. وحين يقف السائق فجأة، تتعرض حصانة الأجساد للانتهاك، أحيانًا بشكل عفوي،

وغالبـــاً بشكل متعمد ممن يقفون خلف النساء بصلابة ويتحينون الفرصة لملامسة الأجزاء البارزة منهن.

أتذكر هنا ما حدث من تحرش جنسي صريح تعرضت له "ذات" في رواية صنع الله إبراهيم التي تحمل الاسم نفسه، وما جرى للراوي في رواية "اللجنة" - للأديب نفسه- خلال وجودهِ في الأتوبيس؛ إذ يتحرش شاب ضخم الجثة بفتاة، تُظهر انزعاجها من سوء سلوكهِ، ثم تعترض الفتاة كلامِيـــاً، إلى أن يضربها الشاب. وهنا يعترض البطل؛ لأن "السيل بلغ الزبى"، وينتقد سلوك العملاق بثبات، موضحـــاً أن الفتاة هي الضحية. وهنا ينقلب الموقف – الحدث، ليصبح البطل في موضع اتهام، بعدَ أن طاله الضرب المُبرح من العملاق، الذي يصل لدرجة كسر ساقهِ، حيث يتدخل الناس مخاطبين الشاب العملاق بصيغ خانعة معروفة تزيد من عقدة التسلط فيه؛ مثل "أنت العاقل" و"روق بالك".. ثم يأخذ أحد الركاب الراوي – البطل إلى باب الأتوبيس، قائلاً : "أقصر عن الشّر وانزل"!

وتستحضر الذاكرة ما جرى للدكتورة نوال السعداوي وترويه في الجزء الأول من سيرتها الذاتية "أوراقي.. حياتي" عن قرصات مجهولة في الفخذ وسط الزحام، ودس أحدهم إصبعه الصلب في ظهرها "أو ذلك الشيء الآخر الذي يتصلب بين فخذيه يدسه في جنبي أو في الإلية وأنا واقفة مصلوبة بين

الأجساد، يداي مرفوعتان قابضتان على عمود علوي في سقف الترام أو القطار أو الأتوبيس" (ج 1: ص 210).

النساء هنا يبحثن عن الحصانة لأجسادهن من الاستباحة في وسائل النقل العامة. ولذا تتجنب الراكبات عادة التقاء نظراتهن بأي غرباء قد يعتبرون التقاء العيون دعوة للاقتراب أو التعارف. وإذا كان معهن مرافق، فإنه يحرص على إحاطتهن مثل حارس شخصي من الملامسات العابرة أو الاحتكاكات الجسدية المريبة أو البريئة على حدٍ سواء. المشاجرات والمشادات تتطاير في هواء الحافلة التي سرقوا منها الأكسجين. ولا فائدة من الاحتجاج بالزحام الشديد الذي يجعل تجنب الملامسة أمرًا مستحيلاً.

في طريق العودة، ترى البعض عصيّ الدمع شيمته الصبر!

أحد بدائل تفادي الزحام في طريق العودة، هو الأتوبيس النهري، لكنه أقرب إلى أن يكون ترفيهيـــًا أكثر منه وسيلة نقل. لم يكن هناك من طريق سوى التحايل على الزحام بالركوب إلى ميادين مثل ميدان التحرير.. ومن هناك يخلق الله ما لا تعلمون.

في تلك الأيام، خلق الله الكثير مما لا نعلم.. حتى وإن عشناه.. وعايشناه.

مـــراودة

"القوم يحبّون الماضي، ولستُ أستطيع، ولا جلاديَّ دفعًا لهذا الحُبِّ، لكن سيأتي ذات يوم رجلٌ يشعر بمثل شعوري، فيحطم سوري مثلما حطمت الكتب، ويمحو ذكراي، فيصير ظلي ومرآتي وهو لا يدري"[9]

كم يقصرُ العمر، حين يلثمُ ثغرُنا يدَ الحياة.

كم تلهبنا سياطُ القلق، حين نبذر حنطةَ العشاق ونقطنُ منازل الألوان.

فالنجومُ استقالت من معسكرها العلوي، والمدينة لم تعد تلقي بتعاويذ الشغف على العابرين.

حتى الابتسامة التي سقطتْ على العشبِ، لن تُسترد.

عزاؤنا الوحيد هو أننا لم نُلبس التاريخَ طاقيةَ الإخفاء، ولم ننس إيكاروسَ وهو يقتحمُ مدارَ الشّمسِ.

---

[9] خورخي لويس بورخيس، الدنو من المعتصم، ترجمة: إبراهيم الخطيب، منشورات نجمة، الدار البيضاء، 1992.

هكذا نَمَت لنا في هذه المدونة أجنحة طرنا على بساطها أربع سنوات كاملة.

هكذا التقى حبري مع ورقكم، حتى تَجَرَّحَتْ بالعطرِ أرجاءُ المكان.

في هذه المدونة دوَّنتُ أسماء أحبتي؛ لأثبتَ أني كنت يومـــًا ما على قيد الحياة.

وأنا غريبٌ لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان.

نخلةٌ يتيمة، باغتتها الريح واقتلعت مشابك ثمارها الجميلة؛ والنخلة العارية لا تشربُ صهدَ الصحراء.

ثمة ليل لهِم للخوف يترصدُني، يبعثرني مثل ريح مصابة بالصداع، قبل أن يستخرج جمرة من الصدر حسبتُها منذ دهور رمادًا.

البعضُ يُصلي الظهر، والبعض الآخر يَصلى القهر.

لكنني ارتديتُ معطفَ اللغة التي تأخذني إلى ظل الماء الدافق والواثق، ثم تنهضُ في ندى شفاف كالأرواح لتعانقَ شجرة متسلطة بتاجها المضاعف الكَثِيفِ الاوراقِ، تتمزقُ فوقها الغيوم كأقمشة بالية.

عند مفترق الطرق كَتبنا، ونفضنا طحالبَ الوقت حتى تتساقطَ الأزهار لتنامَ في راحة اليد.

ولأننا مشاغبونَ بالفطرة، فقد سطرّنا كلمات تأخذُ شكل ألسنة طيور، وركضنا فوق كروم تعيد تشكيل الحياة.

صدمتنا التفاصيل الصغيرة، لكننا على الأقل دخلنا غرفة المعرفة وتحسسنا جدرانها بحثـــاً عن زر الإضاءة.

خضنا معارك في ساحة الوعي، واستبسلنا في نصرة الحقيقة، ولم ننتظر الأوسمة.

والمدونون نوعان: كاتب.. وكاذب.

هناك من يدخلُ من باب الضوء الضيق، ويمشي الزقاق إلى حدود الأرض؛ يمضغُ قلبه بالموهبة والبديهة الحاضرة ويلوكُ عينيه الغائرتين لينظم قصيدة.

وهناك حشوة الفلين في الطرد الذي يسلمه عامل البريد السريع، والمرأة التي دأبتْ على تصفيف شعرها المستعار، وثرثرة الهاتف التي تفرز تعليقات سمجة وأكاذيب مهشمة.

بعض الكتابة جناية: بارودٌ متخثر في بنادق صدئة يكرهها الجدار.

وبعض التدوين ابتلاء: حُراس أضرحة يُعمّدون بدموعهم هول الضحايا.

وبعض الحديث هذر: فخٌ مُحكَم من الثرثرة يُذيقك مرارة الهدر.

وبعض الأقلام تائهة: أضواء فلورسنت رخيصة في مطعم للوجبات السريعة.

إنها لعنة الغفلة، كمن يبحث في جيوبه عن آخر القطع المعدنية أمام آلة دفع الرسوم.

وكلما ضاعت أهدافك كلما قتلت نفسك، وغرقت في نومك كإصبع معقوف.

أما نحن، فقد راودنا النصوصَ وواجهنا اللصوص.

أكملنا "أثرياء مصر زمان.. والآن" عن رجال الأعمال الذين صنعوا المال ولم يصنعهم، وأبناء الرغبةِ في الفراغ الذين تَتمايل مُؤخِراتُهم في الهواء بخفّة.

واصلنا "كتاب الرغبة" عن نساء كانت خطيئتهن الوحيدة هي البوح.

جميلات يُولَدُ ألفُ ربيعٍ شهيٌّ على شفاههن، وحين يشَفّهُن البوحُ يتمردن على العزلة، ليصبحَ مشيُهن نوعــاً من الطيران الخفيف، فالجسد العاري سيرةٌ ذاتية تمتص النزوات كمنديل ورقي.

عندما تكونُ امرأةٌ سعيدة، يهدهدُ ضياؤها الأحلام؛ وحين يحكين لك عن بؤسهن، عليك أن تنصت صامتــاً حزينــاً.

تذوقنا "الصورة إن حكت: لن يمروا".. واللقطة زيت السراج في هذه الحياة الهادرة.

كم يعلمنا العنكبوت قوة النسيج وهو يتصنّعُ الهدوء!

لم يكن هذا كل شيء.

كانت حكاياتنا بدوية تضعُ الكحل حتى تصيرً قيثارًا يوقظُ غبشَ الفجر.

وكرَّت حباتُ السُّبْحة.

في "فتوات تحت الطلب" حكينا عن الذين نقشت عليهم الشَّمسُ لهبَها، فأشعل بعضُهم الحرائق وسقط آخرون في وحل الرصيف.

في "البحث عن وزير"، شرحنا قوانين اقتناص الكراسي المستظرفة، على وزن الأواني المستطرقة، وفسَّرنا قانون الصدفة الذي رفع من يشبهون رناتِ الهاتف الزائفة إلى مصاف المستوزرين.

هؤلاء الذين يجلسون فوق المقاعد الوثيرة، من دون أن ينطقوا بملاحظة أصيلة ولو مرة واحدة في حياقم.

تصدينا في موضوع "الإدارة العاجزة" لمن لا نخشى نارهم ولا نطمع في جنتهم؛ هؤلاء الذين يشبهون بطانية أو حقيبة إسعاف أولية لا تجديان نفعــاً.

نافذون في النهار، ينامون على أرق يطول؛ لأن أصوات الشارع تقلقهم.

كيف يحققُ العاجزُ معجزة؟

"ذئاب الفصول" عن تلك النظرة الضيقة الخبيثة، والبراءة التي تخشى ضلال الأصابع بين أربعة جدران، وتلك المقاومة الطويلة المضنية للنصل والأنياب في مقاعد الدراسة. يرتكب فأسُ الحطّاب جرائمه، ثم يعود ليلاً إلى صندوقه الخشبي لتزوره كوابيس الأشجار المقطوعة.

"قضية الراهب المشلوح" عن الذين أغلقوا الأيام خلف نهارهم.

والليلُ مصباح الأعمى، والأبيض أمنية الضرير.

"جرائم المعطف الأبيض: جنس وقاصرات.. وفياجرا" عن أطياف الملائكة الذين صاروا أشباه شياطين.

"جنس الإخوة" عن الرجال الذين أذعنوا للكبت والكراهية. والضغينة جرادٌ يأكل حقل الأرواح الهائمة.

ما أصعب اقتلاع سنّ من لثّة متورِّمة!

"صعود على مهل" عن المدن التي ترتعش كأمنية، والموسيقى الهادئة التي تُبطئ بشكل غامض إيقاع العالم.

وكلما كتبنا أكثر، كلما أصبحت الأحلام أغنى، وتطهرنا من تسعة أعشار ذنوبنا.

كان لا بدّ للشجرة من ثمار.

أنجزنا كتاب "جرائم العاطفة في مصر النازفة" عن انطفاء القلوب العارية، وعربدة القراصنة في الأجساد المستباحة، وكهرباء الصاعقة التي تسمم الذكريات.

روح الانتقام طفلٌ بليد يمزق دفاتر الفروض المدرسية، وقاتلٌ مأجور يحتفظ بالموت في صندوق سيارته السوداء، وينتظر اللحظة المناسبة للتفريق بين حبيبين يوشكان على العناق بعيدًا عن الأنظار.

وأصدرنا كتاب "يوميات ساحر متقاعد" عن العاشق الذي يعرقُ بكلمات ترشحُ من مسام قلبه، والقبلات الطائشة التي ترقدُ بسلام في مقبرة الذكريات، والسيدات الموسومات بالعشق، اللاتي يطرحن بعد المضاجعةِ السؤالَ الموجع ذاته: "هل تحِبُّني؟".

ونشرنا كتاب "فيلم مصري طويل" عن الأشباح اليومية في أوطاننا التي تجعل القهوة دائمـــًا سيئة المذاق.

ها نحن نشرب نخبَ أيام مضت، نختفي بالمنفى ونرقب من خلف الستائر سفينة تغمرها طمأنينة عدم الوصول.

أيها الصيادون، وحدها المحارات المغروسة عميقـــًا تحمل اللؤلؤ.

حـــرائق الزمـــن

"إنني مؤمن كل الإيمان بأن المستقبل ليس مكتوبـًا في أي مكان، فالمستقبل سيكون كما نصنعه. المصير بالنسبة إلى الإنسان كالريح للمركب الشراعي، الربان لا يستطيع تحديد الاتجاه الذي تعصف فيه الريح ولا مدى قوتها، ولكنه يستطيع توجيه أشرعته، ويحدث هذا فرقـًا هائلاً: الريح نفسها قد تهلك بحارًا مبتدئـًا أو متهورًا أو مترددًا، أو تقود بحارًا آخر إلى بر الأمان"[10]

نسيم الليل ملاءة، ومساء فبراير طليقُ اللسان.

الكلمات التي تلمع فوقنا، ترفرفُ كالمناديل مُلوحة للغيوم الشفيفة.

ونحن نسابقُ الزمان الذي ارتمى خلف أسراره، مثل نهر تشاكسه ضفتاه.

في الذكرى الخامسة لتحليق عصفور المدونة، أرتدي سترة الريحِ، وأغطي الشظايا عند جدار القلب، وأُسمي الذاكرة حنينـــا.

---

[10] أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة: نهلة بيضون، دار الفارابي، بيروت، 2004

وأنا العائد والعابر الذي يُراقبُ ساعته الرملية، ويكتبُ ليرمي قفاز الهدوء أمام قلوبكم وعمود الكبرياء.

كتابة ترشد الأقدام الغائرة في كثبان رملية، وتنقذ الأجسام من الغرق في بحار خضراء لوّنتها أجيالٌ من الطحالب البحرية.

في كل نهار يُولد بلمسة من أصابع الشمس، أدركُ أن الحياة عادةٌ مميتة، تستولي علينا وتجرنا إلى السكون الأبدي؛ لكنني أنجو من الكوابيس بالمتعة والعمل.

تصحو الأرض تحت قميصي، فأقطفُ النبوءات الجامحة، وأقاوم ثقافة التباهي بالهباء.

كان آخرون يسيرون مرتبكين، قبل أن يسقطوا في حُفر الطمع والجشع، لكنني نذرتُ نفسي للسير باستقامة.. فلا المال مجد، ولا الجاه خلود.

وحدها الاستقامة راية في حديقة التّحَوُّلات.

أتشربُ النور مع الهواء المحيط، وأحِبُّ رائحة الزهر ونداوة الشارع، ووداعة القمح الناشئ، ولغة الموسيقى التي تتسلل من الشرفات صاعدة إلى السماء.

أجمعُ المتع الصغيرة لأصنع منها أيقونة السعادة.

يُطعم الليلُ بوارجَه الحربية ببارود القلق، ليقصفني بمزيد من السهر.

وما بين اللحظة الصعبة والدمعة الصلبة، أتنفسُ حرائق الزمن بابتسامة آيلة إلى الزوال.

ولأننا نذرنا أنفسنا للكتابة، فلا بأس من التفاتةٍ سريعة إلى علامات الطريق في عام مضى.

كتبنا عن "أشهر عشرة بهلوانات في مصر"، أولئك المتغطرسين، المجردين من الظلال.

البعض يتنكر في هيئة شجرة؛ ليضلل العامة ويقنع العيون بالعماء.

والعتمة تربت على كتف الأزواج المخدوعين كامرأة باردة.

قلنا عن هؤلاء "إنها سلالة الهوان التي أصبحت هذه الأيام تتصدر عناوين الصحف وأعمدتها، وحفلات المجتمع الراقي، وكواليس صناعة القرار السياسي، وملاعب كرة القدم،وحفلات توقيع الكتب، والاتحادات والنقابات.. وغيرها من الخيبات".

واليوم سقط منهم خمسة بالضربة القاضية عقب ثورة 25 يناير، واهتز الكرسي قليلاً تحت ثلاثة آخرين، فيما انزوى اثنان في هامش الهامش.

حكينا في "جرائم الأفندية"، عن طبقة سقطت في فخ ذنوبها.. وهي في درب الصعود.

كم من خطايا يتناوب فيها الضحية والجلاد!

في "عصر الجواري.. والباشوات أيضـــاً"، تطرقنا إلى فقراء الفقر المطلق، ذوي الأسمال البالية والوجه المرتعب أمام سيد مخيف بلا ملامح؛ نساء مُتعبَات، مُغتالات، في دروب الذل، لم يبق منهن سوى رماد المهانة، على يد نخاسين وأثرياء يسلبونهن عصارة كيانهن.

من قال إن الماضي مأثرة الذكور؟

تكلمنا في "دنشواي.. ضحايا وجلادون" عن كوكتيل الدم والرعب، والقانون الذي يستيقظ باكرًا إن كان المتهم غير مرئي.

وبدا "اغتيال الباشا.. بأثر رجعي" حديثـــاً عن سقوط رئيس وزراء مصر مجندلاً بالرصاص، وسقوط المجتمع مجندلاً بالطائفية.

تحدثنا في "شهقة اليائسين.. الانتحار على الطريقة المصرية"، عن الأرواح المحزونة والخوف العاري من الشقاء والضعف واليأس.

بأي جُرحٍ تحلم الضمادة؟

وعقدنا "محاكمة كرة القدم"، للنظر في أمر تلك الطاقة الحيوية التي أثخنتها الأخطاء والخصومات.

وأشرنا إلى "ثورة الكرامة" في مصر: شباب يريدون وطنـــاً بلا أقفال.

حزمة من النور في الميدان الكبير.

ساطعون في المساء، صدورهم تتقد بالأمل وتأتلق كشمعدان.

في دمهم الصاخب، يتعذرون على القهر حتى عاشِر جيل؛ إذ يواجهون آلة قمع شائخة علّمت نهر النيل الصرامة وأرادته حزينـــاً إلى الأبد.

عندما تجتاح العاصفة قلبَ السفينة، تنحل المفاصل. والأمم لا تنجب العظماء إلا بعد مخاض عسير.

بعيدًا عن التاريخ والسياسة، رسونا قليلاً على مرافئ العذوبة.

وبكامل الهدوء، كتبنا كلمات تستريح في الظل تحت قوسيّ الحاجبين.

الأحرفُ التي تتعرى، تحلُّ بخفةِ القبّعة عن راهبةٍ كان شعرُها تحتها محبوســاً.

وبعضُ البوح ملاحم غير مقصودة: "لدغة حُبّ" عن المُغامِرة الفاتنة، التي ما زالت ترسم قلوبــاً على النافذة.

والرغبة التي تتمرغ تحت أنظارِ الستائر، لا تشبع إلا عندما تضطربُ الساعات وتفقدُ حكمةَ حسابِ الدقائق.

شكرًا للحظات الشغف الأرعن، والحواس المتشابكة، وأضواء الصدفة اللامعة التي تخترقنا في اندفاع مفاجئ.

و"بقعة صغيرة زرقاء" عن الألم الذي أمد له حرير روحي، كربيع مؤجل، والمرأة التي يبدأ اسمها بالحرف الأول لقلبي.

تجتذبني بكثير من الغنج كما يجتذب نجمٌ سنةً وراءه، فأقتنع بأن الحُبَّ زورق، كلما أصبح مُثقلاً بالأشياء، زادت فرصته في الغرق.

والحُبُّ جريمة لا بدّ فيها من شريك.

و"دمعة حبر" عن الغربة التي تفتك بالمرأة التي صارت سنبلة، وأمنية العودة التي تملأ كل كأس.

و"الصورة إن حكت (4): انتهى الدرس"، عن سقوط طاغية دأب على تعقيم شعبه بغاز الخوف، حتى هوى تحت مطارق الفساد.

أصدرنا "جرائم بالحبر السري"، عن ريح الغباء التي تهب على خاطئين في مقاعد الحكم وقاعات الدرس وعيادات الطب.

نساء على أهبة الغواية مثل اشتعال الفاكهة، ورجال يدهنون مفاصلهم اليابسة بالرؤى المنحرفة.

تناولنا في "فتوات وأفندية" تلك الثقوب التي أحدثتها سلالات من النمل في مصر خلال نصف قرن مضى. محامون ومدرسون وموظفون سقطوا في بئر الجريمة، وقطاع طرق لا يتأملون السماء بقدر ما يجتاحون الدروب بحثـاً عن ضحية.

وتكلمنا في "حروب كرة القدم" عن "هذه الكرة التي تتدحرج لتعانق العشب أو الشباكَ بعد عزفٍ خرافي لسيمفونية

الأقدام، وقد تنبت لها أجنحة فتطير في الزمان والمكان بسرعة يغار منها الضوء، باحثة عن المرمى، حتى تصير كرة القدَر".

طرحنا أسئلة، والأسئلة حماقة همجية.. وقدمنا إجابات، والإجابات كفنٌ يخفي الحقيقة.

ولأن التعبَ بلا نوافذ، سنكتبُ أكثر، حتى تصير

"قبل الطوفان" بيت الحياة.

غـــابـة عـتـيــقـــة

"الكتابة انتحار مؤجل"

إميل سيوران

الأيام نافذةٌ عالية أعمتها شمس الأصيل، والسنوات امرأةٌ نسيت أن تضع على كتفيها وشاحـــاً من الريح.

أما أحزاننا فهي ذلك الميزانُ النحاسي الصارم الذي يختل لكي نكون أكثر دقة واتزانـــاً.

تناديني خصلة شعر النهار، فأمنحُها نومي المتقطع وحنجرتي الجريحة وحرفـــاً من اسمي.

اسمي ورسمي، ألمي وقلمي.

قد يكابد هذا القلم، لكنه لم يتثاءب يومـــاً.

خط شهادته على ورقة استعرقا من جِلد الكون، حتى ارتعش من جَلَدها الهواء.

والكتابة قويدة، أما الكاتبُ نفسه فهو سفينة عملاقة عالقة في جليد المحيط، لم يبق منها سوى شراع مستسلم وأضواء كابية على سطحها، وموتى ينتظرون موجة عالية.

أكتبُ، وتحتي تصغر الأرض، وفوقي قشعريرة تهب من الشمال، وكل الطرق تتقاطع ثم تعاود الافتراق.

وفي الأفق، طائرٌ حُــرٌّ يغني، حتى وإن اضطر إلى أن يغني وحده.

نحن كائناتٌ متشابهة، نرتدي أفكارًا فضفاضة ونبحر في حقيبة مفتوحة اسمها سفينة العقل.

ها أنا أضع في قلبي كل ما لا يستطيع الإبحار من أثاث روحي، وأنشد أغنية من سنوات الطفولة، مثل ريح تذكرتْ للتو إلى أين ستذهب.

هذه هي الحكاية التي تخاف المضي قدمــًا، حتى وإن أخذ بيدها راويةٌ من طراز فريد.

لكننا روينا وكتبنا ومشينا على جنون الأبجدية التي تكاد تحترق. لم نجلسْ على مائدة الخزي والجزع من المساحات البيضاء في الورق.

كتبنا حتى ما بقي في المحبرة مداد، وتركنا التفاصيل تحلم بالحقيقة.

وأنا حملتُ بخار أنفاسي واحتضنتُ وطني وقبّلتُ فراغــًا عمره ألف عام.

في الذكرى السادسة لإنشاء مدونة "قبل الطوفان"، أفكر في قارةٍ جديدةٍ يجدر بي اكتشافها، وأحفر خندقــًا جاهزًا لاستقبال الكتيبة.

هكذا كتبتُ سلسلة ضافية عن "قانون محاكمة الوزراء": "الثغرة"، "النكتة"، "الإجهاض"، "الانفجار".

في تلك السلسلة، تحدثنا عن غياب قانون محاكمة الوزراء – في ظل الدولة الرخوة– وقلنا إن "مصر شهدت طوال أكثر من نصف قرن، وصولاً إلى مطلع عام 2012، فراغــًا تشريعيــًا نجم عن عدمٍ وجود قانون ينظم محاكمة الوزراء. وباتت الحاجة أكثر إلحاحــًا من ذي قبل لوجود قانون بهذا المعنى يواجه جميع التغيرات والتطور الذي طرأ على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في مصر، بعد أن أصبح لديها وزراء رجال أعمال وحدث خلل في الهياكل الاجتماعية وتفاوت هائل بين الطبقات، وطرأت أفعال وجرائم جديدة لم تكن معروفة في مصر منذ نصف قرن".

وأردفنا قائلين: "وإذا كان دستور 1971 ينص على أن لرئيس الجمهورية أو لمجلس الشعب حق إقالة الوزير أو محاكمته عما يقع منه من جرائم أثناء تأدية أعمال وظيفية أو بسببها، فإن ما يهمنا هو أنه لم يحدث أن حُوكِم وزير واحد وهو على مقعد الوزارة؛ لأنه لا قانون يحكمه".

في "عشتُ تقريبـــًا"، كتبتُ عن نفسي التي تغلّفها العزلة، وصورتيَ التي أطفأها مصباح الزمن، وقلت:

"الآن يكتملُ الزمان، فأصبحُ جزءًا من الماضي.

أنتزعُ الأيامَ إلى الأبد، كنشيد قديم في فم الريح.

أروي عن حياتيَ، فقط لأكتشفَ حقيقة الشيب الذي اعتراني".

تلك الرواية تتسلق الوقت وتخاطب الحبيبة: في الغياب، يلمسني صوتكِ برقةٍ أكبر، ويغويني كي انقاد وراء عزفه الغامض وأسير في دربه الهامس، حتى ترتقي ما هتكت يداكِ من نسيان.

سأمضي إذن محدودبـــًا متثاقلاً، وعند آخر خيطٍ من شعاع الشمس أختفي في عتمة عين أحد العابرين.

كي ترى ما لا يُرى، أرهِف الروح لا البصر.

في عالم كرة القدم والتقاطعات مع السياسة والدين والإعلام، كانت لنا وقفات.

"بركات الشيخ طه" عن التدين في ملاعب كرة القدم المصرية، و"كأس مرشد الإخوان" الذي قلنا فيه "والثابت أن اهتمام جماعة الإخوان المسلمين بالرياضة أمرٌ حيوي؛ حيث شرعوا في تأسيس أندية خاصة بالإخوان، وأصبحت هذه الأندية تنافس في بطولات الجمهورية في أكثر من لعبة.

"وحظيتْ لعبة كرة القدم بعناية خاصة من الإخوان المسلمين بسبب شعبيتها وإقبال الناس عليها، حتى أنه كان للإخوان قبل منتصف القرن العشرين **99** فرقة كرة قدم في مناطق القُطر المختلفة".

وأضفنا قائلين: "الأكيد أن الدين كان، وغالبـــاً سيظل على الدوام، جزءًا من نسيج لعبة كرة القدم، وستبقى أشكال ذلك وصوره شاهدًا على التأثير الكبير للدين على اللعبة داخل المستطيل الأخضر.. وخارجه".

وعن الأزمة المفتعلة بين مصر والجزائر، من ملاعب كرة القدم إلى مضماريّ الإعلام والسياسة وبالعكس، حدّث ولا حرج.

فقد كتبنا سلسلة مطولة في المدونة ضمت: "مصر والجزائر.. المصائر"، و"إعصار في استاد القاهرة"، و"أم المباريات"، و"معركة البرابرة"، و"ليلة الرعب في السودان"، و"صراع الكباتن"، و"الحقونا"، و"شارع المتعصبين"، و"خطة تسميم الآبار"،و"صراع العقول والأقدام"، و"حفلات الإهانة"، و"فرسان الجهل"، و"مراهقة إعلامية"، و"فنون الغزل والتعصب".

قلنا بوضوح إن "الأزمة الكروية بين مصر والجزائر انتهت، أو في أضعف الأحوال تراجعت، وقد يجادل البعض بأنه آن الأوان للأعصاب المتوترة والنفوس المشحونة أن تهدأ، ولكن

الأخطر في نظرنا أنها كشفت مدى جهل المجتمعين المصري والجزائري بعضهما ببعض، ومدى مغازلة السلطة هنا وهناك لجماهير تتسم سلوكياتها وردود فعلها بالغوغائية والاندفاع غير المدروس".

ثم جاء كتاب "لحظات تويتر".

كتابٌ يلتقط اللحظات والانفعالات ويلتزم بضوابط النشر على موقع التواصل الاجتماعي الشهير.

قلنا يومها:

"هذا هو عالم تويتر: الحكاية كاملة في **140** حرفـًا على الأكثر!

"حروفُ النار التي تنام على الألم وتصحو على الأمل، تكتبُ نفسها وتضمد جراحها وترتدي ثوب اللهفة وتاج الحكمة وروح الثورة.

"وفي كل أحوالها وأطوارها، تبدو الكلمات على تويتر كأنها اسم على مسمى: تغريدة على شرفة الحياة.

"في هذا المنبر الإلكتروني تفتحُ شرفة على الذات ليراها غيرك، وتنالُ فرصة استثنائية للتفكير والتأمل والتعبير بصوتٍ مسموع ومقروء، يتخطى المسافات والحواجز ويتجاوز الأقطار والقارات، بسحر الكلمة وقوة تأثيرها، التي تشبه بطش الدهشة".

كتابٌ عن النسوة اللاتي يحملن مظلات كبيرة واقية من الشمس، والصيادين الذين يؤنسون وحشة القوارب الصغيرة، والصبية الذين يمشون إلى المدرسة مغمضي الأعين، والعشاق الذين يراقبون في دعةٍ غروبـًا مثاليـًا للشمس، والطغاة الذين خلصوا إلى أنهم لا يملكون أرواحـًا، والمجاعة التي تفتك بالوطن/ المهرجان في الليالي التي يُفترَض أن تكون ماطرة.

كتبنا عن البشر العاديين الذين لا يُسمع سوى صوت حفيفهم الغامض، ويحفّون قاع الصحن بالملعقة، ثم يرتمون على فراشهم مثل كسرة أولى تسقط عن المائدة وهي لا تحسب أن أحدًا يسمعها.

نحن نسمعها، ونرصدها ونحكي عنها، واثقين من أن الجياد دومـًا أطول من العُشب، والطاغية أصغر من الشعب.

وفي لحظةٍ طال انتظارها، خرج إلى حيز الوجود كتاب "قصة الثروة في مصر"، الذي قلنا في تقديمه:

"عن ستة حروف يتحدث هذا الكتاب: الثروة.

"هذه الحروف الستة حكمت مصر، وحرّكت الأحداث مثل مسرح العرائس، وأقامت نهار المحروسة، ولم تقعد ليلها حتى الآن.

"لم تكن الثروة في بلادنا راقصة باليه تسير على أطراف أصابعها بخفةٍ ورشاقة، وإنما دبت بقدميها على الأرض مثل مصارع سومو، في مهمةٍ عنوانُها الإقصاء والانفراد بالمشهد.

"لم تكن الثروة في مصر ترفـــــــاً، بل طرفــــــاً في كل شيء: الحروب والمقاومة، الصناعة والزراعة، التحالف والصراع، الفرد والعائلة".

نقرع الآن أجراس عامٍ جديد لهذه المدونة، ونمضي مثل مراكب الناجين من الغرق، مبللين بالماء، وتوّاقين إلى اليابسة.

سنحصل أخيرًا على سماء معبئةٍ بالنجوم، وغابةٍ عتيقةٍ حُبلى بالأمل.

حـرفة الأمـل

في وقتٍ ضائع من الليل، تبدو النصوص رحلة من الخدر الطويل.

في وقتٍ ضائعٍ من العمر، تكنس الحروف بقايا كوابيسنا المستحيلة.

والزمن سياج، حين نقفز فوقه نندم قائلين: لقد كنا أجمل على الضفة الأخرى.

لكننا نعوض ذلك كله بابتكار حروفٍ مقدسة، ونؤمن بأن عند أطراف الأصابع سرّ من أسرار الله.

ونحن نكتب حتى تُغير الشوارع مزاجها وتتخلص من هول الرتابة. نعيد ترتيب الكون، فلا يضيق بخطواتنا، نحن الذين نسير وسط هذا الحشد من المنومين مغناطيسيـــاً الذين يخدشوننا بنظراقم الجارحة.

الخوف في كل اتجاه، ونحن نهندس تلك العمارة الكئيبة المسماة الحياة. وحين نوشوش للفراغ، لا نسمع سوى صدى حزننا.

في عالم التدوين، أخط كلماتٍ أنهكها الغبار؛ تقاوم الروابط، والأيقونات، والمواقع الإلكترونية، والذكريات التي لا تنسانا. أنصبُ خَيمتي فِي رَمْلِ العُمرْ، وأحكي، وأنتظر أن يُلقى قميص اللغة على وجهي في أيّة لحظة.

ولكن، من أنا؟

أنا من جيل الطلاء الأزرق على النوافذ، خشية القصف. جيل الأبيض والأسود على شاشة يتيمة. جيل الكتابة على ورقة محايدة. كم أنتِ فادحة يا ذكرياتي!

أنا من جيل المصابيح الصُفر الميتة، وحُبٍّ المصايف، والروايات المهربة، والقصائد المكهربة، والسعال الحاد الذي يخترق البيوت كي يقتلنا كما نستحق.

أنا من جيل ارتجافة الغبطة، والهذيان المحرق، والمرح الزاهي، كلما عاش تجربة الحُبِّ الصامت.

أنا من جيل رأى البيانولا والأراجوز وعرائس الماريونيت، لكنه عاش السيرك الحقيقي في عروض العسكر ووعيد الأجلاف.

أنا من جيل رسائل البريد، وغزل الشرفات، والحافلات المزدحمة، والبثور التي تخفق في إخفائها، والسنين التي تمر في هدوء كأن لم تكن.

اليوم، لم يبق معي من البريد والطوابع إلا سكين فتح الرسائل. كل شيء حولي أصبح ملونـــاً.. ومؤلمـــاً.

في هذه الرحلة المضنية، نحتاج بعض العذوبة، كي لا ننسى أننا بشرٌ.

لكنني كلما كبرتُ، أصبحتُ أكثر يقينـــاً من أن أطمئن. صرتُ أكثر احتراســـاً من الزيف، لكنه – لفرط دهشتي– يزداد مهارة في الاحتيال. أتعلَّمُ أن إنقاذ الآخرين، فكرة خيِّرة ساذجة، قد تودي بك إلى الهاوية، وأكتشف أن دمي هو الدُّمية التي اشتريتها في طفولتي، وتسللتْ خارج جسدي في سن متقدمة.

ثم ماذا؟

يأتي الندم على هيئة دمعة، ويمتصنا منديل الزمان ببطء مثير للرثاء.

تلك الغصة عبء ثقيل، لكنني أحاول التماسك والصمود وليس أمامي سوى استدراك الحياة.

والكاتب قد تكون مشكلته الأزلية في البقاء حيـــاً، فهو يخفق دومـــاً في وضع خطوط فواصل بين أحلامه والواقع الرديء.

يا للغرابة.. من بين مئات الجرائم، لم تلتصق بي سوى تلك الصفة وذاك اللقب: كاتب!

والكتابة انغماسٌ في المسرات على اتساعها، كي نسد الباب أمام هذا الموت المسمى الحياة.

إنها أعلى مراتب المسرة.

أن تدفن أصابعك في قصاصات الورق وأن تغمسها بالحبر، فتخلق عالمـــاً خياليـــاً أنجبته لحظات الألم.

وأنا هزمتُ التزيفَ باللغة.

في عام مضى، احتضنت مدونة "قبل الطوفان" فصولاً إضافية في رواية الحياة، وغصونـــاً قبّلتْ جبين الشجرة، ثم غادرت بحثـــاً عن أرض جديدة.

في كل مرة، كانت الفكرة تهمس للتي بعدها: هذي يدي تمسح على صدرك الساكن، حتى ينهمر النور وتُشرقي بالميلاد.

وما نعيشه.. يدوم.

ولأن شريط الحياة يعيد بعض اللحظات الآسرة من تلقاء نفسه، فقد استلهمنا من البشر، وأسرارهم الدفينة، كمـــاً فائضـــاً من الدهشة. هكذا كتبنا "إثمنا الجميل" عن سيرة ضائعة تنجب الألم، و"يا خال" عن هذا الفرع المبتور لكنه يواصل النمو، و"سديم" عن النهايات المؤجلة على سرير الانتظار.

الحياة فظة، وها أنا أخفف قسوتها بالمجاز.

واصلنا الغوص في أعماق تاريخ المحروسة؛ لنحكي عن المال والمآل داخل القصور، في سلسلة "ثروات الحكام.. ولحظة الحقيقة".

سخرنا ونحن نبوح بفيض من القصص عن وسائل التعذيب التي كانت تلتهم أسفلت الشوارع قبل عقود، في "اهتزازات زمن فات".

نالت الرياضة نصيبـــاً وافرًا من الاهتمام، في محاولة لإعادة تركيب تفاصيل الأزمة الكروية بين مصر والجزائر، فكانت الثمرة هي تدوينات "مباراة في التجني"، و"غبار الغضب"، و"قتل الأب"، و"للوراء دُر"، و"مباراة الجروح"، و"غبار المعركة"، و"كرة الندم". ثم عرَّجنا على عالم الأغنياء الذين يجثمون فوق صدور الأندية الرياضية، فأعدنا اكتشاف "الحرب بين متولي.. وقوطة"، و"تاجر الألماس في ميت عقبة"، و"لعبة الكومي"، و"الرئيس يدفع الحساب"، و"أباطرة المال في عالم الرياضة"، و"معركة ملكية الأندية".

هذه الرحلة الطويلة لم تكن أرضـــاً مقفرة، بل أنبتت من كل زوج بهيج.

في عام واحد، خرج إلى النور ثلاثة أبناء جدد انضموا إلى عائلة الكتابة:

"هيا بنا نلعب"، الذي ليس سوى ثمرة مئات بل آلاف التفاصيل التي تراكمت في الذاكرة طوال سنوات، ثم انفجرت على هيئة كلمات.

والكلمة أشفّ من البلور وأقطع من السيف.

"فضة الدهشة"، الذي يعد ثمرة ثانية لاختلاس الثواني كي أعلق كلماتِ على لبلابة تويتر التي تتسلق أسوار قلبي، في رحلة جديدة بحثـًا عن كتابةٍ تختصر المساحات والمسافات، وتختزل الوقت والحروف، قبل أن تطبع على الوجوه قبلة نسكب فيها ريق الأمل.

كتبتُ على تويتر كل ما يمكن أن يُذهل روحي، مفتونـًا بهذه الرغبة الجامحة في لمس الأفق، ومأخوذًا بسحر المعاني والمشاعر، مثل كتلة ضوء متوهجة، تنجذب إليها سفينة تتأرجح على صفحة الماء.

"شهقة اليائسين.. الانتحار في العالم العربي"، عن رسائل الموت التي لا يجوز إهمالها، والفعل الوحيد الذي يصبح الفاعل بعده جزءًا من الماضي. وعلى حافة الحياة، يرغب البعض في خلاصٍ يوقف دبيب جيوش الألم، وراحة وقتية قد تفتح باب عذابات أبدية.

إنها اللحظة التي يبدو فيها كل شيء خاليـــاً من المعنى والأساس والمبرر، ويجتاح الأيام عقمٌ مطلق، بالنسبة لشخص عاجز عن الاستقرار أو الاستمرار، فيتأهب لمواجهة هاوية أخرى لا تنضب. رسائل خلاص لن تصل، ونهايات يظن أصحابها أنها فعل اختيار، ويرى كثيرون أنها جناية على الروح التي نؤتمن عليها.

هكذا نطق كل ابن برسالته.

شبَّ عن الطوق ابنان آخران، فأخرجت المطابع طبعة منقحة ومزيدة من كل من "قبل الطوفان"، و"جمهورية الفوضى"، أعادتا التذكير بالصوت الحُــرِ الذي نطقت به هذه المدونة أمام سلطان جائر، وكشفت به بعض تاريخنا المزيف الذي أرادوا به التدليس، حتى خرجت مصر إلى الميادين في لحظة نادرة من عمر المحروسة.

لم يذهب عناؤنا سدى، فقد كتبت "الأهرام" عن "المال الحرام في مصر"، وتحدثت "رويترز" عن "قصة الثروة في مصر"، وتكلمت "القدس العربي" بإسهاب عن أسرار "قصة الثروة في مصر".

وبالمثل، تحدثت "الجزيرة نت" عن "شهقة اليائسين"، وجلست مجلة "أكتوبر" متأملة "في حضرة الموت الجميل"، وأفردت جريدة "الأهرام" مساحة صفحة كاملة تحت عنوان "شهقة اليائسين.. عن أسرار الانتحار في مصر".

في الذكرى السابعة لإنشاء مدونة "قبل الطوفان"، تعلّمنا أن كل الأحلام غائمة، إلا تلك التي نعمل على توضيحها بتفاصيل رأيناها في يقظتنا.

كم تتعلق روحي بهذه المدونة التي منحتني حرفة الأمل، ولقنتني درس الحياة: لا تتصنع الكتابة ولا تصنعها؛ فقط اكتب ما يُمليه عليك قلبك.

سيرة موجزة

ياسر ثابت، صحفي مصري، من مواليد ألمانيا عام 1964.

حاصل على درجة الدكتوراه في الصحافة عام 2000.

عمل مديرًا للأخبار في قناة سكاي نيوز عربية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة (2011)، ومنتجـًا أول للأخبار في قناة الجزيرة في قطر (2002)، ورئيسـًا لتحرير غرفة الأخبار في قناة الحرة في الولايات المتحدة (2007)، ورئيسـًا للتحرير في قناة العربية في دبي، الإمارات العربية المتحدة (2007).

له مؤلفاتٌ عدة، بينها:

•"أيامنا المنسيـّة" (منشورات ضفاف، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر 2014)

•"تحت معطف الغرام" (دار اكتب، القاهرة 2014)

•"زمن العائلة: صفقات المال والإخوان والسلطة" (دار ميريت، القاهرة 2014)

•"صناعة الطاغية: سقوط النخب وبذور الاستبداد" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"رئيس الفرص الضائعة: مرسي بين مصر والجماعة" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"حروب العشيرة: مرسي في شهور الريبة" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"دولة الألتراس: أسفار الثورة والمذبحة" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"محاكمة الرئيس: البحث عن القانون الغائب" (دار اكتب، القاهرة 2013)

•"شهقة اليائسين: الانتحار في العالم العربي" (دار التنوير، القاهرة 2012)

•"قصة الثروة في مصر" (دار ميريت، القاهرة 2012)، (طبعة ثانية، مكتبة الأسرة، القاهرة 2013)

•"هيا بنا نلعب: عن الأوطان والأوثان" (دار اكتب، القاهرة 2012)

•"فضة الدهشة: تغريد على غصن تويتر" (دار العين، القاهرة 2012)

•"لحظات تويتر: ألف تغريدة وتغريدة" (دار العين، القاهرة 2011)

•"جرائم باخبر السري" (مركز الحضارة العربية، القاهرة 2010)

•"حروب كرة القدم" (دار العين، القاهرة 2010)

•"فتوات وأفندية" (دار صفصافة، القاهرة 2010)

•"فيلم مصري طويل" (مركز الحضارة العربية، القاهرة 2010)

•"كتاب الرغبة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2010)

•"جرائم العاطفة في مصر النازفة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2009)

•"يوميات ساحر متقاعد" (دار العين، القاهرة 2009)

•"قبل الطوفان: التاريخ الضائع للمحروسة في مدونة مصرية" (كتاب ميزان، القاهرة 2008)، (طبعة ثانية، دار كنوز، القاهرة 2013)

•"جمهورية الفوضى: قصة انحسار الوطن، وانكسار المواطن" (كتاب "ميزان"، القاهرة 2008)، (طبعة ثانية، دار كنوز، القاهرة 2013)

•"ذاكرة القرن العشرين" (مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 2001)

•"موسوعة كأس العالم" (مدبولي الصغير، القاهرة 1994).

الفهـــــرس

لدغة حُبّ	7
بقعة صغيرة زرقاء	25
عشتُ.. تقريبـــاً	44
إثمنا الجميل	52
ما تيسّر من السفر	58
يــــا خــــال!	73
دمعة حبر	82
ســـــديـــــم	94
سقوط حُـــرّ	100
الفتى الذي شَرِبَهُ النهر	110

بائـــــرة!	117
كل عام وأنتم بخير	123
اهتزازات زمن فات!	128
مـــــراودة	140
حـــــرائق الزمـــــن	147
غـــابـــة عـــتـــيـــقـــة	154
حرفة الأمل	162

